

ترجمات

ترجمة: ياسر شعبان

فلاديمير نابوكوف

رواية

العين

ميراث

891.734

ناب

ع

العين

ترجمات

إشراف: ياسر شعبان

العين

الطبعة الأولى، ٢٠٠٢

(c) ميريت للنشر والمعلومات

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس: ٥٧٥١٥٠٠ (٢٠٢)

merit56@hotmail.com

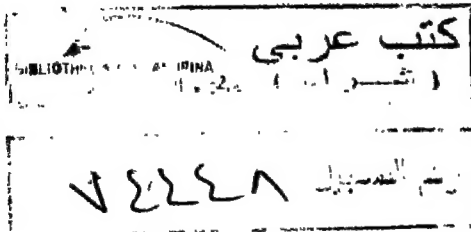
المدير العام: محمد هاشم

الغلاف: أحمد اللباد

رقم الإيداع: ٢٠٠٢/٣٢١٣

التزقيم الدولي: 977-351-027-1

فلاديمير نابوكوف
العين
رواية



ميريت للنشر والمعلومات



مقدمة المؤلف

العنوان الروسى لهذه الرواية الصغيرة هو (SOGLYDARTAY) بترجمة تقليدية، وينطق صوتياً كـ sugLy - dart - eye، مع علامة نبر على المقطع قبل الأخير. وهو مصطلح عسكرى قديم يعنى "جاسوس" أو "مراقب" لكن أى من الكلمتين لا يعبر بمرونة مثل الكلمة الروسية. وبعد اللهو فى روايتى "الجاسوس" و"المصارع"، توقفت عن محاولة مزج الصوت والإحساس، وكثفت من نفسى لئتناسب مع "العين" فى نهاية مطاردة طويلة. وتحت هذا العنوان نسجت الرواية طريقها المبهج من خلال ثلاث حلقات تم نشرها فى مجلة "بلاى بوى" أثناء الشهور الأولى من عام ١٩٦٥. وكنت قد كتبت النص الرئيسى فى عام ١٩٣٠، فى برلين، عندما استأجرت وزوجتى حجرتين من عائلة ألمانية فى شارع هادى. وفى نهاية العام ظهر هذا النص فى مجلة "émigré review"، فى باريس، والمعنية بنشر

الأدب الروسى. والشخصيات الموجودة فى هذا الكتاب
هى الشخصيات المفضلة لى خلال مرحلة شبابى الأدبية.
شخصيات المغتربين الروس فى برلين، باريس ، أو
لندن".

وحقيقة، بالطبع، قد يكونون كذلك نرويجيين فى
نابلس أو "أمبراشيانس" فى "أمبريدج" : فدائماً كنت غير
مهتم بالمشكلات الاجتماعية، واستخدم فقط المادة التى
يتصادف وجودها بالقرب منى، مثل الأقلام الرصاص
الموجودة على مائدة العشاء، زاوية شارع، وأكتب على
مفرش المائدة أو أرتب كسرة خبز وزيتونتين فى وضع
قطرى بين قائمة الطعام وعلبة الملح.

وثمة نتيجة مدهشة لحالة عدم التحيز لحياة
المجتمع وكذلك لأشكال التطفل التاريخى، وهى أن
الجماعة المجتمعية تنزلق كلها إلى بؤرة فنية تتطلب
الحفاظ على مظهر من قبل الكاتب المهاجر وقارئه
المهاجر.

ومنذ فترة طويلة تم استبدال كل من (إيفان
إيفانوفيتش) و(إيف أوزيبوفيتش) فى (١٩٣٠) ، بقرءاء
غير روسيين يشعرون بالحيرة والإثارة اليوم عندما
يضطرون إلى تخيل مجتمع لا يعرفون شيئاً عنه، ولهذا لا
مانع لدى فى أن أكرر مرات أن أكواماً من الورق تم
انتزاعها من الماضى وتدميرها بواسطة مدمرى الحرية،
فلقد قامت الدعاية الروسية، منذ نصف قرن تقريباً ،

بتضليل الوعي الأجنبي ليتجاهل أو ينكر أهمية الهجرة الروسية (والتي لا زالت تنتظر من يقوم بالتاريخ لها).
تدور أحداث القصة فى الفترة بين (١٩٢٤ - ١٩٢٥). بعد انتهاء الحرب الأهلية الروسية بأربع سنوات، وكان (لينين) قد توفى منذ فترة جد قصيرة ، لكن طغيانه استمر فى الانتعاش. عشرة ماركات ألمانية لا تتعادل تماما خمسة دولارات. وفى هذه الرواية تتفاوت شخصيات الروس المنفيين من الفقراء المتشردين إلى رجال الأعمال. ومن بين رجال الأعمال فى الرواية (كاشمارين "زوج ماتيلدا" الذى فر من روسيا عبر المنفذ الشمالى لكوستانتينبول). وكذلك والد "إيفجنيا" و"قانيا" وهو جنترلمان عجوز يدير فرع شركة ألمانية فى لندن، وله رفيقة لعوب).

وينطبق على "كشمارين" ما يطلق عليه الإنجليز : (الطبقة المتوسطة)، لكن السيدتين الصغيرتين اللتين تعيشان فى (٥ شارع بيكوك) فمن الواضح أنهما تنتميان إلى طبقة النبلاء الروسية ، ثبت ذلك أو لم يثبت ، لكن ذلك لم يمنعها من أن تكون لهما ذائقة قراءة تقليدية محافظة . وكان زوج "إيفجنيا" ذو الوجه الممتلى ، والذى لاسمه اليوم وقع كوميدى، يعمل فى بنك برلين.
أما الكولونيل (موخين) ، المزهو بنفسه والمتزمت البغيض، فلقد حارب فى العام (١٩١٩) تحت قيادة (دنيكين) ، وفى العام (١٩٢٠) تحت قيادة (رانجيل)، وهو

يتحدث بأربع لغات، وله مظهر يعطى انطباعاً بأنه خبير بالناس ويترك أثراً بارداً على النفس ومن المحتمل أن يؤدي بشكل جيد فى الوظيفة المريحة التى يوجهه إليها أبوه بالمعمودية.

أما الصالح "رومان بوجدانوفيتش" ينتمى إلى ثقافة منطقة بحر البلطيق ذات الصبغة الألمانية أكثر من انتمائه إلى الثقافة الروسية.

وتعتبر شخصيات مثل: اليهودى غريب الأطوار (فينشتوك)، والطبيبة المنتمية لدعاة السلام (ماريانا نيكوليفنا)، والراوى الذى لا ينتمى إلى طبقة بعينها، تعتبر هذه الشخصيات ممثلة للمتقنين الروس.

ومثل هذه الإشارات ستجعل الأمور أسهل قليلاً على نوع القارئ (مثلئى أنا) الذى يشعر بالخطر تجاه الروايات التى تتعامل مع الشخصيات الطيفية بما يحيط بها من أشياء غير مألوفة، ويشبه ذلك الترجمات عن اللغة المجرية. أو الصينية.

وكما هو معروف (أستخدم عبارة روسية مشهورة) ، مثلما تتميز كتبى بغياب الأهمية الاجتماعية، فإنها تتميز كذلك بالبعد الأسطورى الذى يغرى الفرويين بالدوران حول هذه الكتب ، والاقتراب منها بمجسات مثلهذه ، ويتوقفون، يتشممون ثم يتراجعون.

من ناجية أخرى فإن سيكولوجى جاد قد يميز خلال بللوراتى البراقة؛ عالماً من تحلل الروح حيث يتحقق

وجود (سمروف) المسكين فقط عند انعكاسه في عقول الآخرين، وهؤلاء بدورهم مرتبطون بنفس الوعد المراءى الغريب، مثله تماماً.

وتحاكى الرواية الأدب البوليسى، لكن حقيقة - يعلن المؤلف عن عزمه على خداع وإثارة حيرة والقارئ بدلاً عن خداعه.

في الحقيقة، فقط القارئ الذى سيدرك ذلك من أول وهلة سيحصل على حالة إشباع فريدة من رواية العين.

ورغم ذلك، فإنه حتى بالنسبة للقارئ الأكثر توحداً وتصديقاً لهذه الحكاية سيحتاج إلى وقت طويل كى يدرك من يكون (سمروف).

وجربت ذلك على عدد من القراء: سيدة إنجليزية عجوز، طالبين، مدرب هوكى الجليد، طبيب، طفل فى الثانية عشر وهو ابن لأحد الجيران.

وكان الطفل هو الأسرع، والجار هو الأبطأ فى إدراك ذلك. إن موضوع رواية (العين) هو عملية التحرى || سرقة التى تقود البطل عبر جحيم من المرايا، وتنتهى بظهور صورتين توأمتين.

ولا أعرف إذا كان القارئ الحديث سيشاركنى البهجة الرائعة التى حصلت عليه، منذ خمس وثلاثين سنة، من تحديد مثال أسطورى بعينه تتطلبه الحالات المختلفة للراوى، لكن على أية حال ليس التركيز على الأسطورة

بل على المثال.

واعتقد أن تتبع آثار (سمروف) لهو رياضة بديعة،
بغض النظر عن مرور الوقت وتجاوز الكتب، والانتقال
من سراب لغة إلى واحة لغة أخرى. ولن يتم اختزال
حبكة الرواية في عقل القارئ - إذا كنت أقرأ ذلك العقل
بشكل صحيح - إلى مجرد قصة حب مؤلمة، والتي لا
يتعرض فيها قلب المتألم إلى الازدراء فقط، بل إلى الإهانة
والعقاب.

وهكذا فإنه على المدى الطويل، فإن قوى الخيال،
وهي قوى الخير، ستكون إلى جانب 'سمروف' وسيثبت
كذلك أن المرارة الشديدة للحب المعذب، أنها مسكرة
ومنعشة مثلما يكون الانتقام النشوات.

فلاديمير نابوكوف

مونتريو

١٨ أبريل ١٩٦٥

(ماتيلدا).. قابلت هذه المرأة خلال أول خريف لى
كلاجى فى برلين، منذ عقدين من الزمن، وفى بداية
العشرينات من هذا القرن ومن حياتى المغفلة.

كان شخص ما قد تحصل لى على وظيفة مدرس
خصوصى لى إحدى العائلات الروسية التى لم يكن قد
طالها الفقر - بعد، وما زالت تعيش على أشباح العادات
السابقة فى (سان بطرسبرج).

لم تكن لى خبرة مسبقة بتربية الأطفال، ولا حتى
أدنى فكرة عن الوسيلة التى أستطيع بها الانسجام معهم،
ولا عن الأشياء التى يجب أن أحدثهم عنها.

وكان فى الأسرة صبيان، شعرت فى وجودهما
بالقهر والذل.

كانا يعدان السجائر التى أدخنها، ومثل هذا
الفضول اللطيف جعلنى أدخن سيجارتى بزاوية غريبة
وغير بارعة، كما لو كنت أدخن للمرة الأولى، وكان
الرماد يتساقط دائماً على صدرى، حينئذ كان تحديقهما
الواضح يتحرك بيقظة من يدى إلى الغبار الرمادى الباهت
الذى يعلق تدريجياً بالملابس الصوفية التى أرتديها.

و"ماتيلدا"، صديقة أبويهما، كانت تزورهم كثيراً
وتبقى لتناول العشاء.

ذات مساء، حينما كانت تستعد للرحيل، سقطت
الأمطار بغزارة فى الخارج، وأعارها مظلة، فقالت: كم
هذا لطيف منكم، أشكركما بشدة، سيصبحنى هذا الشاب

إلى البيت ويعود بها إليكما. منذ هذا اليوم، أصبح من مهمى أن أصحبها إلى البيت.

وأظن أنها بدت لى جذابة ، هذه السيدة ممثلة الجسد، المتحررة، بعينيها الشبيهتين بعينى بقرة، وفمها الواسع الذى تحيط به تجعيدات قرمزية مثل برعم زهرى، عندما تنظر فى مرآة حقيبتها لتضع البودرة على وجهها. كانت لها ساقان أسطوانيتان ومشية رشيقة توحي بأشياء كثيرة.

كانت تنشر دفناً غامراً بمجرد ظهورها، لدرجة أننى كنت أشعر كما لو أن حرارة الغرفة قد ارتفعت.

وبعد توديع هذا الآتون الحى الضخم عند رؤية بيتها، كنت أعود وحيداً وسط الأصوات السلكة والبريق الزئبقى لليل عديم الشفقة، كنت أشعر بالبرودة، برودة تجعلنى أشعر بالغثيان.

بعد فترة - وصل زوجها من (باريس) وصاحبها لتناول العشاء. كان زوجاً مثل غيره من الأزواج ، ولم أُنَبِّه له كثيراً إلا بالقدر الذى يسمح لى بملاحظة عادته التى تسبق بداية الكلام "بتسليك" حلقه عن طريق "تحنة" سريعة وقبضته أمام فمه.

وكذلك ملاحظة عصاته السوداء ذات المقبض اللامع التى يخطب بها الأرضية، بينما (ماتلها) تحول عبارات الوداع بينها ومضيفتها إلى مناجاة مبهمة للنفس.

بعد شهر رحل زوجها، وفي أول ليلة - بعد رحيله - أرى بيتها ، دعنتى (ماتيلدا) للصعود معها لآخذ كتاباً، أغرتنى طويلاً كي أقرأه، يحمل عنواناً فرنسياً (أريان - Ariane) لـ (جون فيل روسيه). كانت تمطر كالعادة، وثمة هالات مرتعشة تحيط بمصابيح الشارع. وبينما كانت يدى اليمنى تغوص فى الفراء الساخن لبالطو من فراء الخلد ترتديه، حملت بيدي اليسرى مظلة مفتوحة تسقط عليها قطرات المطر طوال الليل وهذه المظلة فيما بعد ، وفى شقة "ماتيلدا" وضعت مفتوحة بالقرب من مدفأة تعمل بالبخار، واستمرت تقطر.. تقطر، مسقطه قطرة كل نصف دقيقة، مما أدى إلى تكوين بركة كبيرة من المياه. أما الكتاب فنسيت أن أخذه.

ولم تكن "ماتيلدا" هى عشيقتى الأولى. فقبلها أحبتنى (خياطة) فى "سان بطرسبرج". وكانت، هى أيضاً، ممثلة الجسد وداومت على نصحى بأن أقرأ رواية بعينها (ميوروشكا، قصة حياة امرأة..). وعن كلا المرأتين الممثلتين يصدر، خلال العاصفة الجنسية ، صيحة حادة، وذهول ، ونظرة طفولية مختلصة، وفى بعض الأحيان بدا لى كل شىء مضیعة للجهد، كل شىء مررت به منذ فرارى من روسيا البلشفية بعبورى، خائفاً حتى الموت، الحدود النهائية (حتى ولو كان ذلك بواسطة قطار سريع، وباستخدام تصريح عادى)، كل هذا للانتقال من طوق إلى آخر يكاد يماثله.

وسرعان ما بدأت "ماتيلدا" تثير ضجري، فلم يكن لديها سوى موضوع واحد للنقاش حوله، وبالنسبة لي كان موضوعاً محبطاً، وهو زوجها. هذا الرجل، حسب قولها، كان وحشاً نبيلاً، وفي إمكانه أن يقتلها إذا اكتشف أمر علاقتهما، لقد عبدها هذا الغيور المتوحش.

وذات مرة في "كونستانتينبول" اجتنب أحد الرجال الفرنسيين المحبين للمغامرة، وخطبه عدة مرات على الأرض مثل سجادة.

كان عاطفياً جداً لدرجة تثير خوفك؛ لكنه كان جميلاً في قسوته وكنت أحاول تغيير الموضوع، لكنه كان حصان "ماتيلدا"، الذي تهوى ركوبه والضغط على جانبيه بفخذيها السمينين القويين. وكان من الصعب على أن أضاهي الصور التي ابتدعتها عن زوجها، بمظهر هذا الرجل الذي لاحظته بالكاد، وفي نفس الوقت وجدت أنه أمر غير سار بالمرّة أن أحزر أن الصورة ليست من صنع خيالها على الإطلاق، وعند هذه اللحظة يكون الشيطان الغيور ليس سوى صورة لرجل، أدرك أنه في مأزق، فقام بتمثيل الدور التافه الذي حددته له زوجته: يصبر على أسنانه، يقلب عينيه، ويتنفس تنفساً ثقيلاً من خلال أنفه.

وفي الغالب كنت أمشي مجهداً إلى البيت بعربة سجاثرى الفارغة، ووجهي الذي يلتهب من نسيمات الفجر الباردة فأشعر كما لو كنت قد أزلت توأ مكياجاً مسرحياً.

ومع كل خطوة تتطلق نبضة ألم يتردد صداها في رأسي ؛
لأ تأمل مدى ضآلة ما أنا فيه من نعمة وسعادة، متفحصاً
نفسى من كل جانب، وبالإعجب، أشعر بالشفقة على نفسى،
كما أشعر باليأس والخوف.

فلقد كانت محصلة ممارسة الجنس بالنسبة لى
ليست سوى هضبة صغيرة جرداء ذات منظر قاس.
ورغم كل ذلك، فلكى تعيش سعيداً؛ يجب أن يخبر
الإنسان من حين لآخر لحظات قليلة من غياب المعنى
والمتعة . ورغم أننى كنت دائماً عرضة للخطر، ودائماً
منتبهاً بعينى على اتساعهما، وحتى أثناء النوم لم أتوقف
عن متابعة نفسى دون أن أدرك أى شىء عن وجودى.
وأكاد أجن من التفكير بأننى لا أستطيع التوقف عن متابعة
نفسى ، وأحسد كل هؤلاء الناس البسطاء، والموظفين -
الثوار - البائعين ، الذين بكل الثقة والتركيز يستمرون فى
أداء وظائفهم الصغيرة. ولم يكن لدى درع من هذا النوع،
وهكذا ففى الصباحات باهتة الزرقة والمرعبة، وعندما
يتصاعد - واهناً - وقع قدمى فى جو المدينة الموحش،
كنت أتخيل شخصاً ما يصاب بالجنون لأنه بدأ يدرك
بوضوح حركة الكرة الأرضية. فها هو يترنح محاولاً
الحفاظ على توازنه، يتشبث بقطع الأثاث حتى يستقر على
مقعد جوار النافذة وعلى شفتيه ابتسامة من يشعر بالإثارة،
مثل تلك التى تبدو على شفتى أحد الغرباء فى قطار وهو
يلتفت إليك ليسألك: "هل القضبان تحترق، أليس كذلك؟!".

لكن سرعان ما يجعله الترنح والاهتزاز يصاب بالإعياء ليبدأ فى ارتشاف كوب من الليمون أو الماء المثلج، وهو مستلق على الأرض، لكن دون فائدة، الحركة لا يمكن وقفها، فالسائق أعمى، ولا سبيل للعثور على الفرامل، وهكذا سينفجر قلبه عندما تصل السرعة إلى حد لا يمكن تحمله..

.. كم كنت وحيداً!!.. ف "ماتيلدا" التى ستسألنى بحياء هل كتبت الشعر، "ماتيلدا" التى ستحرضنى أن أقبلها - ونحن على السلم أو عند الباب - فقط للحصول على فرصة تؤدى فيها رعشة خجلى وهمسة عاطفية "أنت ولد مجنون..." ، "ماتيلدا" بالطبع لا تهتم، ومن غيرها يهتم ممن أعرفهم فى برلين؟

سكرتير منظمة رعاية المهاجرين ، الأسرة التى أعطتني وظيفة مدرس خصوصى، السيد "فينشتوك" مالك المكتبة الروسية، المرأة الألمانية العجوز صغيرة الحجم التى استأجرت منها حجرة من قبل، قائمة هزيلة. وهكذا - فكل وجودى المباح ليس سوى دعوة للبؤس. وذات مساء تم قبول هذه الدعوة.

* * *

كانت الساعة تقارب السادسة، والنوافذ تزداد عتامة بسبب الظلمة المتساقطة عليها ، وبالكاد كنت قادراً على تبيين السطور فى قصة ساخرة لـ "تشيخوف" تلك القصة التى كنت أقرأها بصوت آثم على المتحكمين فى

أمرى، لكنني لم أجرو على إضاءة النور، فلقد كان لهذين
الولدين ميلا غريباً - غير كل الأطفال - إلى الاقتصاد
بغريزة بغيضة مثل غريزة ربة المنزل، فهما يعرفان بكل
دقة أسعار "السجق، الزبد، الكهرباء، وشتى الإصلاحات
المتعلقة بالسيارات" وعندما كنت أقرأ بصوت مرتفع
(قصة كامنجة) محاولاً بلا طائل أمتاعهما، وكنت أشعر
بالخجل من نفسي ومن المؤلف المسكين، عرفت أنهما قد
أدركا صراعى مع غيش الظلمة، وأنهما ينتظران ببرود
ليريا هل ساستمر فى القراءة حتى دخول أول ضوء إلى
المنزل من إضاءة الشارع، لأقدم لهما القدوة.
وهذا ما فعلته، وكان الضوء مكافأتى .

وبينما كنت أستعد لإضاءة مزيد من المؤثرات
على صوتى (عند الاقتراب من أكثر المقاطع مرحاً فى
القصة)، رن جرس التليفون فى الصالة. كنا وحدنا فى
الشقة، فقفز الصبيان فى الحال وتسابقا باتجاه صوت
الرنين. بقيت ومعى الكتاب مفتوحاً على حجرى، أبتسم
خجلاً للسطر الذى تعرض للمقاطعة.

وتبين أن المكالمة كانت لى . جلست على كرسي
من نوع "البامبو" ووضعت السماعة على أذنى. ووقف
تلميذائى جوارى، أحدهما عن يمينى والآخر عن شمالى
يراقبانى فى هدوء.

قال صوت ذكورى : كنت على وشك إغلاق
الخط، رغم ثقتى من أنك ستكون بالبيت.

أجبتة بلطف: لن تتعرض ثقتك للخيانة، لكن من أنت؟

قال الصوت: ألم تتعرف على؟ هذا أفضل بكثير، سوف تفاجأ.

قلت ضاحكاً: لكنى أود أن أعرف من الذى يتكلم، أنا أصر.

(فيما بعد كان الرعب والخجل الشعورين المصاحبين لاستدعاء نبرة المرح فى صوتى) أجاب الصوت بإيجاز: فى الوقت المناسب.

وهنا بدأت أشعر بإثارة المزاح، وسألته: لكن لماذا؟ "يالها من قصة طريفة مسلية لـ..." وأدركت أننى كنت أتحدث إلى فراغ، هزرت كتفى بلا مبالاة ووضعت السماعه.

وعدنا إلى غرفة الاستقبال؛ وقلت: والآن - أين توقفنا؟

ووجدت الموضع الذى توقفت عنده وعادوت القراءة. ورغم ذلك، انتابنى شعور غريب بالقلق وعدم الارتياح وخلال قراعتى الآلية ذات الصوت العالى، ظلمت أتساءل دهشاً عن قد يكون هذا الضيف.

هل وافد جديد من روسيا؟

وعبر ذاكرة يلفها عدم الوضوح، تجولت بين الوجوه والأصوات التى عرفتھا. ياااااه - لا يوجد الكثير منها، وتوقفت لسبب ما عند طالب يدعى (بوشاكوف) .

عدت إلى ذكرى السنة الوحيدة لى بالجامعة فى روسيا،
وإلى شعورى بالوحدة هناك ، محافظاً على هذا الـ
"يوشاكوف" مثل كنز .

وهكذا - فعندما - أثناء مناقشة ما، أزعم معرفتى
بتعبير حالم وباهت عند الإشارة إلى أغنية الاحتفال "هيا
بنا نفرح" وأيام الدراسة الطائشة، فهذا يعنى أننى كنت
أفكر فى "يوشاكوف" رغم أننا، والله يعلم، لم نتجاذب
أطراف الحديث معاً سوى مرتين (عن أمور سياسية أو
تفاهات أخرى، نسيت عما تحدثنا) ورغم ذلك ، فمن
الصعب أن يبدو صوته غامضاً هكذا عبر التليفون .

سرحت وأنا أخمن، متخيلاً أنه أحد العملاء
الشيوعيين ، الذى أصبح الآن مليونيراً غريب الأطوار،
وفى حاجة إلى سكرتير.. جرس الباب . وثانية أندفع
الصبيان إلى الصالة، فوضعت كتابى وسرت خلفهما .
وبأدب شديد ومهارة فائقة سحبا المزلاج المعدنى الصغير،
المزود بأداة أخرى ، فانفتح الباب .

وعاودتلى ذكرى غريبة... حتى الآن، الآن وقد
تغيرت أشياء كثيرة، غاص قلبى بين ضلوعى عندما
استدعيت مثل هذه الذكرى الغريبة، مثل استدعاء مجرم
خطير من مخبأه . حينئذ شعرت كما لو أن جداراً بأكمله
من حياتى قد تهاوى ، بلا ضجة على الإطلاق، كما لو
كان فى فيلم صامت . وأدركت أن شيئاً ما يشبه الكارثة
فى سبيله ليقع، رغم ذلك كانت - ولا شك - ثمة ابتسامة

على وجهى ، وإذا لم أكن مخطئاً كانت ابتسامة مدهنة ،
ويدى - الممدودة - قررت ملاقة الفراغ، متوقعة ذلك
الفراغ ، وبلا شك قررت استكمال هذا الوضع (وفى ذهنى
صاحب ذلك القرار إيقاع هذه الجملة "المجاملة الأولية").
وفى وجود هذه اليد الممدودة، جاءت أولى كلمات
الضيف، عندما نظر إلى كفى المبسوطة، وقد كانت فى
طريقها إلى الهاوية. ولا شيء مدهش فى عدم تعرفى على
صوته منذ لحظة مضت فالصوت الذى جاعنى عبر
التليفون ذى النبرة المشدودة المميزة، متشابهاً مع جرس
مألوف، كان - نتيجة للهياج الشديد - صوتاً عريضاً لم
أسمع قبل ذلك أبداً صوت إنسان مثله.

وظل هذا المشهد فى ذاكرتى مثل "صورة حية":
الصالة التى يغمرها ضوء شديد، وأنا لا أعرف
ماذا أفعل بيدى المرفوضة ، وهناك صبى عن يمينى
وآخر عن شمالى، كلاهما لا ينظر إلى الزائر بل إلى أنا،
والزائر نفسه فى معطف المطر ذى اللون الزيتونى
والعرواء عند الكتف حسب الموضة، ووجهه الشاحب
كما لو كان قد أصابه الشلل من "فلاش" مصور، بعينين
جاحظتين وفتحتى أنف واسعتين وشفة مفعمة بالحدق أسفل
شاربه المنسق ذى الجانبين المتساويين.

وعندئذ بدت منه حركة يصعب إدراكها، فلقد
صدر صوت عند انفصال شفتيه عن بعضهما، وارتعشت
خفيفاً العصا السوداء فى يده، ولم أستطع أن أرفع عينى

عن تلك العصا.

سألته: ما هذا؟ ما الأمر؟ قطعاً هناك سوء تفاهم ..
.. بالتأكيد - سوء تفاهم.. وعند هذا الحد وجدت الوضع
مذلاً ومستحيلاً ليدى التى لم تقبل رغم أنها لا زالت
ممدودة فى توسل.

وفى محاولة غامضة لاستعادة كرامتى، تركت
يدى لتستقر على كتف أحد تلاميذى ، فحقق الصبى فيها
بارئيات واستنكار.

قال الزائر كمن يفشى سراً: أيها الرفيق الصالح،
ابتعد ولو قليلاً، فأنا لن أؤذيها ، ولست فى حاجة إلى
حمايتها. كل ما أحتاجه هو غرفة، لأننى سوف أنفض
التراب عنك.

ضربنى. ورفعنى عالياً، شعرت بألم شديد فى
كتفى الذى كاد أن يسحق، ومن فرط قوة الضربة ملت إلى
أحد الجانبين، مما جعل المقعد "البسامبو" يتدحرج من
طريقي مثل شيء حى.

كشف عن أسنانه، ونأهب ليضربنى ثانية. هبطت
الضربة على ذراعى المرفوع. هنا انسحبت وراوغت
لأصل إلى غرفة الاستقبال وتبعنى. وهذه تفصيلة فضولية
أخرى.

كنت أصرخ بأعلى صوتى، منادياً عليه باسمه
ولقبه ، سائلاً إياه بصوت عال ماذا اقترفت فى حقه.
وعندما لحق بى ثانية ، حاولت أن أحمى نفسى

بوسادة جذبتها وأنا أجرى، لكنه أطاح بها من يدي.
صرخت - "هذا عار، أنا غير مسلح، هذا تعد
وافتراء ستدفع جزاء ذلك..." واحتميت خلف أحد المناضد،
وكما سبق، تجمد كل شيء للحظة مثل صورة.
وهكذا كان مكشوف الأسنان، بعضاً مرفوعة،
وخلفه، على جانبي الباب وقف الصبيان. وقد تكون
ذاكرتي أصابها التتميط عند هذه النقطة. فساعدني، حقيقة
اعتقد أن أحدهما كان مائلاً ومستنداً بذراعيه على الحائط،
بينما كان الآخر جالساً على ذراع المقعد، وكلاهما يتابعان
بهدهوء العقاب الذي وقع على.

في الحاضر، كان كل شيء يتحرك مجدداً، وانتقلنا
نحن الأربعة إلى الحجرة الأخرى، وانخفض مستوى
هجومه بشكل واضح، وبدت يداي في وضعهما المذل مثل
ورقة في شجرة تين، وعندئذ وجه إلى وجهي ضربة
مفاجئة وفظيعة.

ومن المثير للفضول أنني - شخصياً - لم يكن في
استطاعتي أبداً أن أحمل نفسي على ضرب أي شخص،
مهما كان تعديه علي سيئاً، والآن، وتحت وطأة عصا
ثقيلة، لم أكن عاجزاً - فقط - عن رد الضربة (وغير
متمكن من فنون القتال الرجالية..)، لكن في هذه اللحظات
من الألم والمهانة لم استطع أن أتخيل نفسي رافعاً يد في
وجه رفيق، خاصة إذا كان هذا الرفيق غاضباً وقوياً،
كذلك لم أحاول أن أفر إلى حجرتي حيث يوجد في أحد

الأدراج مسدس اقتنيته، يال الغرابة، لإخافة الأشباح.
السكون التأملى لثملذي، والأوضاع المختلفة التى
تجمدوا عليها مثل "الفريسكو" عند نهاية هذه الغرفة أو
تلك، الطريقة الكريمة التى تصرفا بها عندما أضاء النور
فى لحظة دخولى غرفة الطعام المظلمة، كل هذا يجب أن
يكون هلوسة ، انطباعات مفككة منحتها أهمية ودواماً،
وبالنسبة لهذه الحالة فهى اعتباطية مثل صورة ركبة
مرفوعة لسياسى أوقفها الكاميرا على هذا الوضع الذى لا
يشبه رقصة الـ "جيج" بقدر ما يشبه عبور بركة صغيرة.

وفى الواقع، يبدو أنهما لم يكونا موجودين طوال
عملية تنفيذ الحكم فى.. فعند لحظة بعينها، وخوفاً على
أثاث أبويهما ، بدا - تأدية للواجب - يطلبان البوليس
(محاولة سرعان ما أجهضها الرجل بزمجرة رعدية)،
لكننى لا أعرف أين أضع هذه اللحظة، فى البداية أم فى
ذروة المعاناة والرعب عندما سقطت فى النهاية مترنحا
على الأرض، كاشفاً مؤخرتى المستديرة لضرباته، وظللت
أردد بصوت أجش: كفاية ، قلبى ضعيف.. كفاية ، قلبى
ضعيف، قلبى.. ويمكننى أن أشير فى جملة اعتراضية -
دائماً يعمل بكفاءة تامة.

بعد دقيقة توقف كل ما سبق، وأشعل سيجارة لاهثاً
بصوت عال، ومحركاً علبة الكبريت لتخشخش، وتجول
لبرهة، مقدراً الموقف، وعندئذ سمعته يقول شيئاً ما عن
"درس صغير" ثم ضبط وضع قبعته وخرج مسرعاً.

وفى الحال نهضت من على الأرض واتجهت إلى حجرتي ، وجرى الصبيان خلفي. حاول أحدهما أن يمرق إلى جوارى من الباب، فأوقفته بلكزة من كوعى، وكنت أعرف أنها تؤلم. أغلقت الباب، أغرقت وجهى بالماء، وكدت أبكى من ملمس الماء الكاوى لجلدى، عندئذ سحبت حقيبتى من تحت السرير وبدأت أعينها. وكان الأمر صعباً، فظهرى يؤلمنى ويدى اليسرى لا تعمل بكفاءة.

وعندما خرجت إلى الصالة مرتدياً معطف المطر، وحاملاً حقيبتى الثقيلة ، عاود الصبيان الظهور. ولم ألق حتى نظرة خاطفة عليهما. لكننى وأنا أهبط السلم شعرت بهما يتابعانى من أعلى، وهما قابضان على الدرابزين.

وبعد درجات معدودة قابلت مدرسة الموسيقى الخاصة بهما، وكان يوم الثلاثاء هو يوم مجيئها، كانت فتاة روسية هادئة ومطبعة، ترتدى نظارة، وساقاها مقوستان.

ولنم ألق عليها التحية ، بل أدت عنها وجهى المنتفخ، وقد وخزنى صمت الموتى الذى صاحب دهشتها، فاندفعت إلى الشارع. وقبل أن أنتحر، أردت أن أكتب بعض الخطابات التقليدية، ويحتاج هذا خمس دقائق - على الأقل - أجلسها فى أمان.

لذلك استأجرت "تاكسى" وذهبت إلى عنوانى السابق، ولحسن الحظ كانت حجرتي المعتادة، شاغرة، والمرأة العجوز صغيرة الحجم - صاحبة المنزل كانت قد

بدأت فى ترتيب السرير حال وصولى، جهد مهدر، لكنها
تتشكى لفترة طويلة، من ملء الدورق، سحب الأعمى -
الارتعاد عند ملاسة حبل يتدلى أو شىء ما عندما تنظر
لأعلى بغم أسود مفتوح.

وفى النهاية - بعد أن تطلق صيحة وداع ، ترحل.
هناك رجل تعيس مرتعش، صغير الحجم وسوقى،
يرتدى قبة سوداء ويقف فى منتصف الحجرة، ولسبب ما
يفرك يديه. كانت هذه هى اللحظة التى النقطةا لنفسى فى
المرأة.

عندئذ - فتحت الحقيبة بسرعة، وأخرجت ورق
الكتابة وظروفا، ووجدت قلماً بائساً - قلم رصاص - عالقا
فى جيبى، جلست إلى المنضدة وانتبهت مكتشفاً أنه ليس
لدى من أكتب إليه. فلقد عرفت كثيرين ولم أحب أحداً.
ولهذا استبعدت فكرة الخطابات ، وكذلك ثم
استبعد الباقي فلقد تخيلت - فى غير وضوح - أننى يجب
أن أرتب الأشياء، وارتنى كناناً نظيفاً ، وأترك كل نقودى
- عشرون مارك - فى ظرف مصاحبة بإشارة إلى من
سيألقاها.

الآن أدركت أننى قد قررت كل ما سبق، ليس
الآن ، ولكن منذ فترة طويلة مضت، فى أوقات متنوعة،
عندما اعتدت أن أتخيل - وأنا خالى البال - كيف يقدم
الناس على إطلاق النار على أنفسهم . هكذا يكون قاطن
المدينة الوائق ، والذي تسلم دعوة غيره متوقعة من صديق

ريفي، بدأت بحيازة ورق وزوج من الأحذية المتينة، ولا يرجع ذلك إلى احتمال الاحتياج لهما في الواقع، بل إلى اللامعنى بما لديه من أفكار مسبقة غير مجربة عن الريف بطرقاته الطويلة بين الغابات والجبال لكنه عند وصوله، لم يكن ثمة غابات أو جبال، لا شيء سوى مزارع منبسطة، ولا أحد لديه الرغبة فى الوقوف على الطريق السريع فى هذا الحر والآن أدركت، مثل شخص يرى حقل لفت بدلاً عن صورة كارت للأودية الصغيرة المنعزلة ولمساحات خالية فى الغابات، كم كانت تقليدية أفكارى السابقة عن اهتمامات ما قبل الانتحار، فرجل قرر أن يدمر نفسه هو بالضرورة بعيد جداً عن المسائل الدنيوية.

هكذا يكون الجلوس لكتابة وصيته، فى هذه اللحظة، فعلاً لا يشبهه إلا عبث إنهاء مراقبة شخص ما، حيث أنه بتدمير هذا الشخص لنفسه يدمر العالم بأكمله ويختزل الخطاب الأخير إلى غبار، وهكذا يصبح كل سعاة البريد، مثل دخان، لتتلاشى الممتلكات المورثة إلى نسل غير موجود.

هكذا اتضح لى شيء طالما تشككت فيه وهو عبثية العالم.

وشعرت فجأة بحرية لا يمكن تصديقها، والحرية نفسها كانت إحدى علامات تلك العبثية.

أخذت الورقة المدون بها ملحوظة "العشرين مارك، ومزقتها إلى قطع صغيرة".

وخلعت ساعتى وظللت أخطبها على الأرض حتى توقفت .

ويحدث أن يملكنى شعور، إذا رغبت، أننى أستطيع فى هذه اللحظة، أن أندفع إلى الشارع، وبجوفى أحاسيس شهوية مبتذلة، لأحتضن أية امرأة أختارها، أو أطلق الرصاص على أول شخص أقابله ، أو أحطم الباترينة الزجاجية لأحد المتاجر.. كان هذا كل ما استطعت التفكير فيه: فخيال بلا قانون أفقه محدود.

حشوت المسدس بحرص لكن دون إتقان ، وعندئذ أطفأت النور وأصبح التفكير فى الموت، الذى أرعبنى ذات مرة ، مسألة بسيطة وحميمية. كنت خائفاً، بل مرعوباً، من الألم الوحشى الذى قد تتسبب فيه الرصاصة، لكن أن تخاف من النوم الأسود المظلم، أو حتى من الظلمة لهو أمر مقبول ومفهوم أكثر من الأرق متعدد الألوان للحياة.

هراء - كيف يمكن أن يخاف المرء من شيء كهذا؟

واقفاً وسط الحجرة المظلمة، فككت أزرار القميص، وثبتت جذعى للأمام عند منطقة الحوض، وتحسست بيدى حتى حددت موقع القلب بين الضلوع. كان ينتفض مثل حيوان صغير أثناء نقالك له إلى مكان آمن، مثل فرخ أو فأر حقل، والذى لا تستطيع أن توضح له عدم وجود ما يخيف، بل على العكس فأنت تعمل لأجل

مصلحته . لكن قلبي كان حياً أكثر من ذلك، فلقد وجدته
متمرداً بشكل ما، يضغط القفص الصدرى بإحكام ضد
طبقة الجلد الرقيقة ، والتي يوجد تحتها عالم متحرك
ينبض فى مرونة، ولذلك جذبت مرتبكاً ذراعى المثنى،
بحيث لا يلمس المعدن صدرى العارى. عندئذ شجعت
نفسى وأطلقت الرصاص.

كانت هناك صدمة شديدة ، وتردد خلفى صدى
صوت مبهج، ومثل هذا الصدى لن أنساه أبداً.
سرعان ما حل محله صوت سريان الماء، ثم ضجيج
لتدفق من الحلق، أخذت شهيقاً ، وغصت فى حالة سيولة ،
كان كل شيء حولى وبداخلى فى حالة تدفق وحركة.
وجدت نفسى أركع على الأرض، مددت يدي
لأستند عليها، لكنها غاصت فى الأرض التى بدت مثل
مياه بلا قاع.

* * *

بعد فترة إذا كان الكلام عن الزمن ممكناً هنا،
اتضح أنه بعد الموت يظل تفكير الإنسان حياً بواسطة
القوة الدافعة.

كنت ملفوفاً داخل شيء ما - هل كان كفناً؟

ببساطة - هل كان ظلمة محكمة؟

بوضوح تام تذكرت كل شيء: إسمى، حياتى على
الأرض - ووجدت راحة مدهشة أنه من الآن لا يوجد
شيء يستحق القلق بشأنه.

وبمنطق مزعج ومفرح، انتقلت من الشعور غير المدرك للأربطة المحكمة، إلى فكرة المستشفى، وفي طاعة لإرادتي، تجسدت في الحال المستشفى الشبحية حولي وأصبح لي جيران، موميאות تشبهني، ثلاثة على كل جانب.

ياله من شيء عظيم تفكير الإنسان، الذي يستطيع أن يتداعى بسرعة بعد الموت. وحدها السموات تعرف طول الفترة التي سينبض فيها ويخلق صوراً بعد أن أصبح مخي الميت بلا فائدة.

كانت الفجوة المألوفة مكان سنة مفقودة لازالت معي، وللمفارقة منحني ذلك بعض الراحة الكوميديّة. وكنت فضولياً بعض الشيء لأعرف كيف دفنوني، هل كانت هناك موسيقى قداس، ومن الذي جاء إلى الجنازة.

كم احتاج تفكيرى من المثابرة والإتقان، كما لو كان قد فقد نشاطه السابق، ليستنبط شكل المستشفى، وشكل الرداء الأبيض الذى يرتديه أشخاص يتحركون بين الأسرة، التى صدر عن أحدها ما يشبه الأنين البشرى. وبراحة استسلمت لهذه الخيالات، بل استترتها، ونخستها لتستمر حتى استطعت أن أخلق صورة كاملة طبيعية، وظهرت الحالة البسيطة للجرح الطفيف الذى تسببت فيه رصاصة طائشة مرت بنظافة من خلال العضلة "المنشارية"، وظهر طبيب (الذى خلّقه هو

(الآخر)، وعجل تأكيد حدسى المبهج.

عندئذ، بينما كنت أقسم ضاحكاً أننى أفرغت
المسدس بغير إيقان، ظهرت السيدة العجوز صغيرة
الحجم، مرتدية قبعة سوداء من القش تزينها ثمرات الكرز
الحمراء، جلست جوار سريري، وسألتنى كيف أشعر،
وبمكر أشارت وهى تهز إصبعها أمامى إلى الإبريق الذى
تحطم بسبب هذه الرصاصة.. أوه - يالبراعة وبساطة
الطريقة التى فسر بها تفكيرى الرنين و القرقرة اليومية
التي صاحبتنى إلى اللا وجود..!

تصورت أن القوة الدافعة - ما بعد الإنسانية -
لتفكيرى سوف تكشف عن نفسها قريباً، لكن ظهر لى أنه
حينما كنت على قيد الحياة، كانت مخيلتى شديدة الخصوبة
لدرجة تكفى لأن يتبقى منها ما يدوم لفترة طويلة بعد
موتى.

وواصلت تحقيق مفهوم الشفاء، وهكذا خرجت من
المستشفى سريعاً وبدا لى أن استعادة مظهر شارع فى
برلين لهو نجاح عظيم وبينما كانت أنزلق ببطء على أحد
الأرصفة، حاولت فى وهن أن أجرب قدمى الضعيفتين
واللتين - عملياً - لازلتا متحررتين من الجسد، وفكرت فى
الشئون اليومية: كان على أن أصلح ساعتى، وأشتري
بعض السجائر، وأننى لا نقود لدى.

حاصرت نفسى بهذه الأفكار ، ليست من النوع
شديد الإزعاج، ولهذا السبب استدعيت منتشياً ملاحظة

"العشرين مارك" قتلون جلدى بلون أحمر داكن عندما تذكرت أنني قد مزقتها قبيل انتحارى، وفى تلك اللحظة شعرت بالحرية والحصانة.

على كل، الآن اكتسب تصرفى أهمية دفاعية معينة، وكنت سعيداً لأننى قيدت نفسى إلى نزوة سوداوية ولم أندفع فى مرح إلى الشارع، لأننى عرفت الآن أن تفكير الإنسان بعد الموت يتحرر من الجسد، ويواصل الحركة فى دائرة حيث يعاد الاتصال بين كل شيء كما كان من قبل، وتصاحبه درجة ما من الشعور، وعرفت أن عذاب المخطئ فى الآخرة يتركز تحديداً فى أن عقله العنيد لا يستطيع أن يجد السلام والسكينة حتى ينجح فى الكشف عن المتواليات المعقدة لأفعاله الأرضية المتهورة. سرت عبر الطرقات المتذكّرة، كل شيء يشبه الواقع إلى حد كبير، ورغم ذلك لا يوجد شيء يثبت أننى لست ميتاً وأن هذا المرور فى الشارع ليس سوى وهم من أوهام ما بعد الحياة، فلقد رأيت نفسى -من الخارج- ماشية على سطح الماء كيفما وجد، وتلامس كلاهما وارتعيا مثل شبح بلا خبرة يتابع وجود شخص : بطانته الداخلية، ليله الداخلى، فمه، والمذاق فى الفم، جميعها يعرفها مثملاً يعرف مظهر هذا الشخص.

وحملتى حركة الطفو الميكانيكية إلى مكتبة (فينشتوك) حيث كانت الكتب الروسية ، تطبع باستمرار كى تسرى عني، معروضة بوضوح فى الباترينة، ولجزء

من ثانية كانت بعض العناوين تبدو غير واضحة، ركزت عليها، فاتضح . وكانت المكتبة خالية عندما دخلتها.
فقط كان في أحد الأركان فرن حديدي مشتعلاً
بلهب باهت مثل جحيم القرون الوسطى. ومن مكان ما
خلف طاولة سمعت صوت تنفس (فينشتوك) الذى يشبه
الصغير وكان يغمغم بصوت متوتر: "لقد تدحرج هنا
بأسفل...". وبعد ذلك نهض، وهنا ضبطت مخيلتي (التي،
في الحقيقة، كانت مدفوعة لتعمل بسرعة شديدة) في حالة
من عدم الدقة:

فلقد كان لـ "فينشتوك" شارب، ولم الآن لم يكن
شاربه موجوداً.

لم يستطع خيالى أن ينتهى منه فى الوقت
المناسب، وهكذا جاءت المساحة الباهتة حيث يجب أن
يوجد الشارب خالية من أى شىء سوى ظل أزرق.
"تبدو فى حالة مزرية"، قالها كما لو كانت تحية،
يال الهول.

أجبت: نعم - كنت مريضاً فى الحقيقة.
قال "فينشتوك": الإنفلونزا منتشرة، ثم أضاف: لقد
مر وقت طويل، أخبرنى هل عثرت على وظيفة.
أخبرته أننى عملت لفترة مدرساَ خاصاً، لكننى
الآن فقدت هذا العمل، وأننى فى حاجة ماسة لأن أَدخُل.
دخل زبون، وطلب قاموس "روسى - إسباني".
قال "فينشتوك": أظن لدى واحد، واستدار ناحية

الأرفف ومرر أصابعه على كعوب العديد من المجلدات ضخمة الحجم - قصيرة الطول. وقال: آه، هاهو قاموس "روسى - برتغالى".. له نفس الفائدة من الناحية العملية.

قال الزبون: سأخذه ، ورحل وفى يده هذا القاموس عديم الفائدة. وبعد برهة انتهت لتنهيدة عميقة جاءت من مؤخرة المكتبة، ظهر بعدها شخص ما تغطيه الكتب، ومر علينا بخطى متثاقلة و هو يسعل .

سألت (فينشتوك): هل استأجرت مساعداً؟

أجاب بصوت منخفض: وسوف أفصله قريباً إنه عجوز بلا أية فائدة على الإطلاق. وأنا أحتاج إلى شخص أكثر شباباً.

سألت "فيكنتى ليفوفيتش" كيف حال جماعة "بلاك

هاند"؟

قال "فيكنتى ليفوفيتش فينشتوك" ، بتكبر وازدراء، إذا لم تكن متشككا حقوداً كنت حكيت لك الكثير من الأشياء المشوقة . ولم يصبني كلامه هذا سوى بقليل من الأذى، فلقد كان فى غير محله: فحالتي الشبعية، الفلسفة، عديمة الوزن كان يجب عليها أن تبدى تصميماً بطريقة أو أخرى، ولكن بدلاً عن ذلك أنتج خيالى محادثة صغيرة أخرى غير ممتعة.

أجبت: لا، لا يا "فيكنتى لفوفيتش"، لماذا تدعونى بالمتشكك؟ بالعكس - ألا تتذكر؟ فهذا العمل كلبنى فى وقت ما قدراً من المال.

وفى الحقيقة عندما قابلت "فينشتوك" سرعان ما وجدت فيه تلك السمة الشعبية فى روسيا، وهى الميل إلى الأفكار غير السوية فلقد كان مقتنعاً بأنه خاضع لمراقبة منتظمة من أشخاص معينين، أشار إليهم فى إيجاز غامض بـ "العملاء".

والمح إلى وجود "قائمة سوداء" من المفترض ظهور اسمه بها. واعتدت على تعذيبه، رغم أننى كنت أرعد فى داخلى . وذات يوم تملكنتى رغبة غريبة فى مقابلة رجل سبق وأتيحت لى فرصة أن ألاحظ أنه فى الصباح الباكر، على الطريق العام كان يتواجد هذا الرفيق الكئيب الأشقر بعينه الماكرتين ، والآن هاهو يقف عند زاوية شارعى متظاهراً بقراءة صحيفة وعندئذ بدأت أشعر بعدم الارتياح. بدأت أوبخ نفسى، وأسخر فى عقلى من "فينشتوك"، لكننى لا أستطيع أن أفعل شيئاً مع مخيلتى ففى المساء أتخيل أن شخصاً ما كان يتسلق إلى الداخل عبر النافذة. وفى النهاية اشتريت مسدساً وهدأت تماماً وهذه هى التكلفة التى سبق وأشرت إليها.

أما أكثر ما يثير السخرية فهى مسألة "رخصة حمل سلاح" التى انتهت صلاحيتها الآن. قال لى فى حسم "بماذا سيفيدك امتلاك سلاح؟" إنهم فى براعة الشيطان، وثمة دفاع وحيد من الممكن أن يستخدم فى مواجهتهم : العقول ، "منظمتى"، وفجأة رمقنى بنظرة متشككة، كما لو كان قد قال أكثر من اللازم، هنا شحذت عقلى وحاولت

التفسير محافظاً على حالة المزاح، فلقد كنت فى موقف غريب، لم يتبق أحد أستطيع الاقتراض منه، ولازلت أحتاج إلى تكاليف المعيشة والتدخين ، وبينما كنت أقول كل ما سبق، أقيت على استحضار شخص غريب عفوى بسنة أمامية مفقودة قدم نفسه ذات مرة إلى أم تلميذى ، وبنفس النعمة المازحة كان يؤكد أنه يجب أن يذهب إلى (فيسبادن) هذا المساء، ويحتاج تحديداً، إلى (تسعين بفنج). وقالت له فى هدوء: حسناً، تستطيع الاحتفاظ بقصة (فيسبادن) لنفسك ، أما كل ما أجرؤ على قوله أننى أستطيع أن أعطيك (عشرين بفنج) أكثر من ذلك لا أستطيع ، وبوضوح هذا مبدأ.

والآن عندما تورطت فى هذا الوضع الموازى ، لم أشعر بأدنى خزى . فمئذ انطلاق الرصاصة ، تلك الرصاصة التي - فى رأيي كانت قاتلة ، تابعت نفسي بفضول بدلاً عن التعاطف، والآن أصبح ماضى المؤلم قبل إطلاق الرصاصة - غريباً على.

وتحولت هذه المحادثة مع (فينشتوك) إلى بداية حياة جديدة بالنسبة لى. فبالنسبة لنفسى أنا الآن مشاهد وتصديق الطبيعة الطيفية لوجودى أتاح لى ممارسات مسلية.

ومن السخف البحث عن قانون رئيسى والأسخف هو التوصل إليه.

وإذا بأحد الرجال الملهمين ، صغير الحجم، يقرر

أن تاريخ البشرية بأكمله يمكن تفسيره بواسطة العلامات الدوارة المخالطة لدائرة الأبراج، أو بوصفه صراعاً بين بطن فارغ وآخر منتفخ ، ويقوم باستئجار شخص مادي النزعة حريص على اتباع الأوامر ليقوم بدور الكاتب، ويبدأ تجارة بالجملة في الفترات الزمنية والجماهير، وعندئذ الويل للنزعة الفردية الخاصة، ومع اتباعهما البائسين يرددون هتافاً يائساً وسط النمو الكثيف للدوافع الاقتصادية.

ولحسن الحظ لم يعد لمثل هذه القوانين وجود: فآلم سنة سيؤدي إلى معركة ، ورذاذ يلغى عصياناً مسلحاً .
.. كل شيء سائل، كل شيء يعتمد على الفرصة ، كل شيء فارغ وعقيم.. مجهودات البرجوازية صعبة المراس بسرأويلها الملونة الفيكتورية ، ومؤلف كتاب "رأس المال"، والنتيجة هي الأرق والصداع النصفى.
ثمة بهجة مضطربة في التطلع إلى الماضي والتساؤل : "ما الذي كان ليحدث، إذا.."، مستبدلاً فرصة بأخرى ، ملاحظاً كيف، من لحظة في حياة المرء تتسم بأنها رمادية ، وعقيمة ورتيبة ، ينبت حدث وردى معجز فشل أن يزهر في الواقع.

ياله من شيء غامض، هذا الهيكل المنفرع للحياة: ففي كل لحظة تمر يشعر المرء بأنه على مفترق طرق، بين "هكذا" و"بطريقة أخرى"، وبعبد لا يحصى من الخطوط المتعرجة الباهرة ذات التفرع الثنائي والثلاثي ،

فى مواجهة الخلفية المظلمة للماضى.

كل هذه الأفكار البسيطة عن الطبيعة المترددة للحياة خطرت ببالى عندما فكرت فى السهولة التى قد يحدث بها أننى لم استأجر مطلقاً حجرة فى منزل يقع فى (٥) شارع بيكوك أو أقابل (فانيا) وأختها، أو (رومان بوجدانوفيتش)، أو أناساً آخرين وجدتهم فجأة وقد شرعوا فى العيش جميعاً حولي، على غير توقع أو رغبة منى.

ومرة أخرى - ماذا لو سكنت فى منزل مختلف بعد خروجى الطيفى من المستشفى ، ربما أصبحت سعادة، لا يمكن تخيلها ، رفيقاً مألوفاً أتجاوز معه.. من يدرى، من يدرى..؟

فوقى، فى الطابق العلوى، عاشت أسرة روسية ، تقابلت معها عن طريق "فينشتوك"، واعتادت هذه الأسرة أن تأخذ منه الكتب - وسيلة مدهشة أخرى بواسطتها يتحكم الوهم فى الحياة..

وقبل أن نتعارف، كنا نتقابل غالباً علي درج السلم، ونبادل نظرة حذرة مثلما يفعل الروس جميعاً وهم فى الخارج.

وسرعان ما لاحظت "فانيا" ، وسرعان ما أبدى قلبى ارتجافة، كما يحدث، فى حلم، عندما تدخل حجرة حلم آمنة وتجد بداخلها عند تتابع حلمك، فريستك فى أحد أركان هذا الحلم.

كانت لها أخت متزوجة تدعى (إيفجينيا) ، امرأة

صغيرة ذات وجه لطيف مربع الشكل يجعلك تفكر فى
كلب "بولدوج" ودود ووسيم، وهناك كذلك زوج (إيفجينيا)
ضخم الجثة فظ المظهر.

وذات مرة حدث فى مدخل العمارة أننى أمسكت
الباب مفتوحاً له، وبدت "ثانك يو - شكرا لك" ولكنه
الألمانية "دنك" أقرب فى إيقاعها إلى الحالة الظرفية للكلمة
الروسية التى تعنى "بنك" وبالمناسبة هو المكان الذى يعمل
فيه.

ومعهم كانت تعيش (ماريانا نيكوليفنا)، وهى قريبة
لهم، وفى الأمسيات كانوا سيتقبلون الضيوف، وتقريباً
كانوا دائماً نفس الأشخاص. واعتبرت (إيفجينيا) بمثابة
سيدة المنزل. وكانت تتمتع بحس فكاهى مرح، وهى التى
أطلقت على أختها اسم "فانيا"، عندما طلبت هذه الأخت
أن تدعى بـ "مونا فانا" (على اسم بطلة إحدى المسرحيات)
بعد أن وجدت أن اسمها الحقيقى (فارفار) يشير بطريقة
ما إلى البدانة وآثار البثور على الجلد.

واستغرقت قليلاً من الوقت لأعتاد على هذا
التصغير للاسم الذكورى (إيفان) وتدرجياً بدأ يكتسب
بالنسبة لى نفس الطيف الذى ضم "فانيا" إلى الأسماء
النسوية الضعيفة.

كانت الأختان تشبه كل منهما الأخرى، فوضوح
هيئة كلب "البولدوج" فى ملامح الأخت الكبرى كان
منعكساً على (فانيا) لكن بطريقة مختلفة أعارت جمال

وجهها أصالة وتفرداً.

كذلك عينا الأختين كانتا متشابهتين ، بنية -
سمراء، بينهما اختلاف طفيف، ومنحرفتان انحرافاً طفيفاً،
بشئيتين ضئيلتين لطيفتين على الجفون الداكنة.
تميزت عينا "فانيا" على أختها (إيفجينيا) بأنهما
أكثر دكنة عند إنسان العين، وبأنهما مصابتان بقصر
النظر، وكان جمالهما جعلهما غير مناسبتين تماماً
للاستعمال اليومي.

كلتا الفتاتين كانت سمراء ، وتصف شعرها بنفس
الطريقة: مفرق فى المنتصف ، وكعكة كبيرة محكمة
تتدلى على مؤخرة العنق، لكن شعر الكبرى لم يكن ينساب
بنفس النعومة الفردوسية، ويفتقر إلى ذات اللمعان القيم.
وددت لو تخلصت من "إيفجينيا" تخلصت منها
كلية لولا الحاجة إلى المقارنة بين الأختين ، وفى نفس
الوقت عرفت أنه لولا التشابه ما كانت عذوبة "فانيا"
لنتكتمل.

فقط يداها ، "فانيا"، لم تكونا راعيتين، فلقد كان ثمة
تعارض صارخ بين باطن يدها الباهت وبين ظهر اليد ذى
اللون القرمزى الواضح والعقد الكبيرة، ودائماً ما كانت
توجد ثنيات بيضاء صغيرة على أطرافها المستديرة.
أى قدر من التركيز، وأية كثافة يجب أن يكتسبها
تحديق المرء، ليستطيع المخ استملاك الصورة البصرية
لشخص؟

هاهما تجلسان على الأريكة ، "إيفجينيا" ترتدى

ثوباً مخملياً أسود، وتزين عنقها الأبيض بعقد كبير من الخرز، أما "فانيا" فترتدى ثوباً قرمزيًا وحول عنقها لآلىء صغيرة محل الخرز الكبير.

وعيناها منخفضتان تحت حاجبيها الكثيفين السوداوين، ولا تخفى لمسات البودرة الخفيفة النمش الخفيف على مفرق حاجبيها الواسع.

وترتدى الأختان حذائين جديدين متماثلين، وتتبادلان النظر إلى قدميهما، وبلا شك لا يبدو نفس نوع الأحذية لطيفاً على قدم إحداهما كما يبدو على قدم الأخرى.

وها هي "ماريانا" طبيبة شقراء ذات صوت حازم، تتحدث إلى "سمروف" و"رومان بوجدانوفيتش" عن فظائع الحرب الأهلية في روسيا.

و"خروشوف" زوج "إيفجينيا"، سيد مرح، وله أنف ممثلي دائماً ما يتناوله بيده، يشده، يضغط عليه، يمسك بإحدى فتحتيه ويحاول أن يلويها، ها هو يقف في مدخل الحجرة الأخرى، يتحدث مع "موخين" .. الشاب الصغير ذي النظارة الأنفية، ويقف كلاهما في مواجهة الآخر على جانبي المدخل؛ مثل أطلسين جبارين. وكان لـ "موخين" والمهيب "رومان بوجدانوفيتش" علاقة طويلة بالأسرة، بينما "سمروف" فمن الممكن أن يُرى عليه البريق الذي يجعل الشخص واضح الوجود بين ناس يعرفون بعضهم جيداً، ويرتبطون معاً بالأصداء الراسخة للدعابات

الخاصة، وللرصيد المتضمن في أسماء هؤلاء الأشخاص والتي تعد حية بالنسبة لهم وذات أهمية خاصة، مما يجعل الوافد الجديد يشعر كما لو أن القصة التي بدأ قراءتها من مجلة، قد بدأت بالفعل منذ فترة طويلة مضت ، بموضوعات قديمة غير متاحة، وأثناء إنصاته إلى المحادثة العامة الحافلة بالإشارات إلى أحداث غير معروفة له، يضطر الدخيل إلى الالتزام بالصمت، ويتجه بنظره إلى من يتحدث ، وكلما كانت الانتقالات أسرع زادت حركة عينيه، لكن سرعان ما يبدأ العالم الخفى الذى يحيا فى كلمات هؤلاء الأشخاص من حوله، فى قهره، ليتساءل فى اندهاش عما إذا كانوا لم يتعمدوا ابتكار هذه المناقشة التى تجعله يبدو غريباً.

وفى حالة "سمروف" ، حتى إذا شعر أحياناً أنه منبوذ ، فإنه بالتأكيد لا يظهر هذا الشعور. ويجب أن أقول أنه ترك لدى انطباعاً مميزاً خلال الأمسيات الأولى . لم يكن طويلاً، لكنه متناسق القوام وأنيق.

وبدت "بذلتة" السوداء البسيطة ورابطة العنق السوداء مناسبة ، بطريقة متحفظة، لجنارة سرية. كان وجهه النحيف الشاحب دالاً على الشباب ، لكن المتأمل الحصيف يستطيع أن يتبين بقايا للندم والخبرة، أما تصرفاته فكانت ممتازة وثمة ابتسامة هادئة ، كنيبة لحد ما، عالقة بشفتيه.

كلامه قليل، لكن كل ما قاله كان متسماً بالذكاء وبأنه مناسب، ونكاته النادرة تثير هديراً من الضحك عندما يلقيها ، وتبدو كما لو كانت تفتح باباً سريراً فى الحديث، يسمح بدخول انتعاش غير متوقع. ويستطيع المرء تخمين أن "فانيا" لن تستطيع أن تحول دون إعجابها السريع به ، بسبب هذا التواضع النبيل المحاط بهالة من الغموض ، وبسبب شحوب جبهته وأسطوانية يده.. أشياء بعينها، مثل طريقة نطقه لكلمة "blagodarstvuyte" وتعنى شكراً، التى تخلو من التداخل المعتاد بين الحروف، بما يحفظ لها رونق الحروف الساكنة، كافية لتكشف للمتأمل الحصيف أن "سمروف" ينتمى لأفضل طبقات المجتمع فى "سان بطرسبرج".

صممت "ماريانا" لبرهة أثناء تعليقها على فضائع الحرب، فلقد لاحظت أخيراً أن "رومان بوجدانوفيتش"، رجل مهيب ذو لحية، أراد أن يعلق بكلمة عالقة فى فمه مثل قطعة حلوى كبيرة ورغم ذلك لم يكن محظوظاً ، لأن "سمروف" كان أسرع بقول " عندما أنصت إلى الكلام عن فضائع الحرب"، هكذا بدأ "سمروف" كلامه وهو مبتسم، مستشهداً بمقتبس مغلوط من قصيدة مشهورة، أشعر بالأسى "لا من أجل الصديق، أو من أجل أمه" لكن لهؤلاء الذين لم يذهبوا للحرب أبداً فمن الصعب أن تحمل الكلمات بالبهجة الموسيقية التى تمنحها لك الرصاصات عندما تغنى... أو عندما تطير بمنتهى السرعة لتبدأ الهجوم.

قاطعته "ماريانا" بحدة : "الحرب بشعة فى كل الأحوال"، أنا مختلفة معك تمام الاختلاف، فالإنسان الذى يسلب آخر حياته هو بالضرورة قاتل، سفاحاً كان أو ضابطاً فى سلاح الفرسان. "من وجهة نظرى الشخصية"، هكذا حاول "سمروف" أن يبدأ، لكنها قاطعته ثانية: البسالة العسكرية أثر من الماضى، فى ممارستى الطبية كانت لدى مواقف متعددة لأرى الناس الذين أصبحوا معاقين أو حطمت الحرب حياتهم، وفى هذه الأيام تتوق الإنسانية إلى مثل جديدة. لا شىء أكثر حقارة من القيام على خدمة مدفع لنلقمه طعامه، ربما التنشئة مختلفة.

قال "سمروف": من وجهة نظرى الشخصية.. وأكملت سريعاً: تنشئة مختلفة ، من حيث الأفكار عن الإنسانية ، والاهتمامات الثقافية العامة، تجعلنى أنظر إلى الحرب بعينين مختلفتين عن عينيك، فأنا لم أطلق النار على الناس أو أطعنهم بحربة.

وحسبما أكد الناس، يمكنك أن تقابل بين زملائى الأطباء أبطالاً يفوقون الموجودين فى ميدان المعركة.

قال "سمروف" : من وجهة نظرى الشخصية. قالت "ماريانا" هذا يكفى أستطيع أن أرى استحالة أن يقنع أحداً الآخر، المناقشة انتهت. تلى ذلك صمت قصير. جلس "سمروف" هادئاً يقلب شاويه بالمعلقة، نعم يجب أن يكون ضابطاً سابقاً، متهوراً أعجبه أن يعبث مع الموت، فقط التواضع هو ما جعله لا يقول شيئاً عن مغامراته.

"ما أردت قوله أنك أشرت إلى "كونستانطينبول" ،
ووجه "رومان بوجدانوفيتش" كلامه بصوت عال إلى
"ماريانا نيكوليفنا" ، كان لى صديق مقرب هناك يعيش بين
زحام المهاجرين، كان من "كشمير" تعاركت معه، فلقد
كان شديد الخشونة حاد المزاج، رغم ما كان يديه من
هدوء أثناء الصيام، وكان طيباً لكن بطريقته.

حدث ذات مرة أنه ضرب رجلاً فرنسياً ضرباً كاد
أن يقضى عليه، ذلك بسبب الغيرة حسناً - لقد حكى لى
الحكاية التالية وهى تعطى فكرة عن العادات والتقاليد
التركية، تخيل... وهنا تدخل "سمروف" وعلى شفثيه
ابتسامة: ضرباً مبرحاً؟

أوه - حسن ، هذا ما أود.

"حتى الموت" كررها "رومان بوجدانوفيتش"،
وانهمك فى حكايته. داوم "سمروف" على هز رأسه أثناء
إنصاته.

كان واضحاً أنه شخص يخفى وراء صمته
وهدوئه ، روحاً متقدة. بلا شك كان قدراً، فى لحظة
غضب عارم، أن يحول بكمة فكاً إلى كسرات، وفى
لحظة هيام يأخذ فتاة معطرة ومرتعشة تحت عباءته فى
ليلة عاصفة ، إلى قارب بمساند مجداف مبطنة، تحت
غطاء من ضوء القمر وشجر المن، كما فعل شخص ما
فى حكاية "رومان بوجدانوفيتش".

وإذا كان لدى "فانيا" أية خبرة بالشخصية كانت

ستلاحظ هذا دون شك.

"ودونت كل ذلك بالتفصيل فى يومياتى" هكذا اختتم "رومان بوجدانوفيتش" حكايته برضا، وأخذ رشفة من الشاي.

ثانية تجمد "موخين" و"خروشوف" كل إلى جوار عضادة الباب التى تخصه. وبنفس حركة اليد، فردت كل من "فانيا" و"إيجينيا" ثوبهما عند الركبة، أما "ماريانا" فثبتت نظرتها على "سمروف" بلا سبب واضح وقد كان يجلس بحيث يواجهها جانب وجهه - واستكمالا لوصفة تقلص عضلات الوجه المناسبة لرجل قوى - داوم الضغط على عضلة فكه فى مواجهة نظرتها غير الودودة.

أنا معجب به نعم بكل وضوح أنا معجب به.. وشعرت بأنه كلما زاد التعمد فى تحديق "ماريانا" الطبية المثقفة، زاد وضوح وتناغم صورة المتهور الشاب ذى الأعصاب الفولاذية، والشاحب بسبب الليالى التى قضاها مستيقظاً فى أودية ضيقة جرداء، وفى محطات سكك حديدية متهمة. هكذا يبدو كل شىء على ما يرام.

* * *

كان "فيكنتى لفوفيتش فينشتوك" يعرف أقل مما يعرفه الآخرون عن "سمروف" الذى يعمل عنده كبائع (خلفاً للرجل العجوز عديم النفع)، فلقد كانت تشوب طبيعة "فينشتوك" لمحة جذابة من الإهمال وربما لهذا السبب استأجر شخصاً ما لا يعرفه جيداً، فتشككه يحتاج إلى

تغذية دورية.

ومثلما يوجد أن أشخاصاً عاديين ومحترمين تماماً يتحولون فجأة إلى جمع فراشات "الدراجون فلاي" أو "فراشات انجرافينجز" هكذا "فينشتوك"، حفيد بائع الخردة وابن بائع التحف، الرزين المتوازن والذي قضى حياته في أعمال متعلقة بالكتب، أنشأ عالماً صغيراً منفصلاً يخصه وحده.

وهناك، في منطقة الظل الناقص، وقعت أحداث غامضة، وأثارت الهند احتراماً غامضاً بداخله: كان واحداً من هؤلاء الناس الذين، عند الإشارة إلى "بومباي"، تلقائياً لا يتخيلون خادماً للحضارة البريطانية جلده داكن اللون من الحرارة، بل يتخيلون ناسكاً كان يعتقد في "جلب النحاس" و"ممارسة السحر"، وفي الأرقام السحرية والشيطان، في العين الحاسدة والقوة الكامنة بالأشكال والعلامات، وفي التماثيل البرونزية عارية البطن.

في المساء، كان يضع يديه، مثل عازف بيانو متحجر، فوق منضدة صغيرة، خفيفة، وذات أرجل ثلاثة، عندئذ تبدأ في الصرير بخفوت، مثيرة صوتاً يشبه الطقطقة، فيستجمع قوته ويصعد فوق أحد الجوانب ثم يذق بقدمه، بطريقة خرقاء لا تخلو من قوة، على الأرض. ويتلو "فينشتوك" حروف الهجاء. وتتبعه المنضدة الصغيرة وتتقر الحروف المقابلة لما يتلوه.

كانت الرسائل تأتي من "القنصر"، "محمد"، "

بوشكين"، وابن عم ميت لـ "فينشتوك".
وأحياناً تصبح المنضدة خرقاء، فترتفع وتظل
معلقة في الهواء، أو تهاجم "فينشتوك" وتضربه في معدته،
فيقوم "فينشتوك"، في ود وبهجة، بتهذئة الروح مثل
مروض حيوانات يقوم بمناورة حيوان لعوب، ويتراجع
خلال كل أرجاء الحجرة محافظاً على وجود أطراف
أصابعه على المنضدة التي تتهاذى خلفه.
وبالنسبة لأحاديثه مع الأموات، استخدم صحناً
موسوماً بعلامة و أداة أخرى غريبة الشكل يبرز قلم
رصاص أسفلها.

كانت هذه المحادثات تسجل في كراسات
مخصصة.

وقد يأتي الحوار بالتتابع التالي:

- فينشتوك: هل عثرت على الراحة؟

* لينين: ليست "بادن - بادن".

- فينشتوك: هل ترغب أن تخبرني عن الحياة

بعد القبر؟

* لينين (بعد فترة صمت): أفضل ألا أفعل.

- فينشتوك: لماذا؟

* لينين: أنتظر حتى تكتمل الجلسة.

وترأى أعداد كبيرة من هذه الكراسات، واعتاد

"فينشتوك" أن يقول أنه في يوم - ما - سيحظى بأكثر
المحادثات أهمية.

وهناك شبح مسل جداً، يدعى (أبوم)، أصله مجهول ، وقح وثقيل الظل، كان بمثابة الوسيط الذى يرتب المحادثات بين "فينشتوك" وكثير من الشخصيات المشهورة، وكان يتعامل مع "فينشتوك" بألفة سوقية.

- "فينشتوك" من أنت أيها الروح؟

* صوت: إيفان سيرجيفتش.

- "فينشتوك" : أي إيفان سيرجيفتش ؟

* صوت : معنوه.

- "فينشتوك": لماذا تهيننى؟

* صوت (تهتز المنضدة): خدعتك ! أنا (أبوم).

.. وفى بعض الأحيان عندما يبدأ (أبوم) مزاحه الخشن، يستحيل التخلص منه طوال جلسة تحضير الأرواح ، عندئذ يتذمر "فينشتوك" قائلاً: إنه شيء مثل قرد.

وكان شريك "فينشتوك" فى هذه الألعاب سيدة صغيرة الحجم، وردية الوجه، ذات شعر أحمر، ويدين صغيرتين ممثلتين، نفوح منها رائحة لبان برائحة "الأوكالبتوس" ودائماً مصابة بالبرد.

وعلمت بعد ذلك أن بينهما علاقة منذ فترة طويلة، لكن "فينشتوك"، الذى فى مواقف محددة يكون فريداً فى صراحته، لن ينطق بشئ عن هذه العلاقة مطلقاً. وكانا يناديان أحدهما الآخر باسمه وباسم عائلته، ويتصرفان كما لو كانا صديقين حميمين .

وكثيراً كانت تمر على المكتبة ، تجلس بالقرب من الموقد لتدفئ نفسها. وتقرأ جريدة "ثيوصوفية" سبق نشرها في "ريجا". كانت تشجع "فينشتوك" فيما يقوم به من تجارب مع العالم الآخر، واعتادت أن تحكى كيف أن الأثاث في حجرتها يعود إلى الحياة بشكل دورى، وكيف تطير مجموعة من ورق اللعب من بقعة إلى أخرى ، أو تنثر نفسها على أرض الحجرة . وكيف أن المصباح المجاور لسريرها يقفز من المنضدة ليبدأ فى تقليد كلب يشد بشراسة، المقود المقيد به، وفى النهاية تتخلع الفئسة، ويسمع صوت عدو فى الظلام، ولاحقاً يعثر على المصباح فى الصالة، إلى جوار باب الشقة الأمامى .

واعتاد "فينشتوك" أن يقول ؛ واحسرتاه ؛ أن القوة الحقيقية لم تمنح له، فأعصابه فى تراخى حمالات البنطلون القديمة، بينما الأعصاب متوسطة النشاط تكون مثل أوتار آلة الهارب.

على كل، لم يكن يؤمن "بالتجسد"، ومن باب الفضول فقط احتفظ بصورة فوتوغرافية أعطاها له أحد الروحانيين تظهر فيها امرأة بدينة وقصيرة بعينين مغلقتين تنقياً كتلة تشبه سحابة مزهرة.

كان مغرمأ بـ "إدجار آلان بو" و"باربى دى أورفيلى" بمغامراتهما واكتشافاتهما، وأحلامهما النبوية ، وبمجتمعاتها السرية.

فوجود التجمعات الماسونية ، نوادى المنتحرين،

الجماهير الفاشستية، وبالأخص العملاء السوفيت الذين يرسلون من (هناك) - كم هو فصيح ومرعب الترنم بكلمة "هناك" - ليراقبوا أحد المهاجرين البائسين ، وجود كل ذلك يحول برلين بالنسبة لـ "فينشتوك" إلى مدينة العجائب، بداخلها يشعر بأنه في وطنه تماماً.

ولابد سيلمح إلى أنه كان عضواً في منظمة كبيرة، مكرسة - فيما يبدو - إلى حل وتمزيق الشبكات الرقيقة التي غزلها عنكبوت معين ذو لون قرمزي لامع، وقد أعاد "فينشتوك" إنتاج هذا العنكبوت على خاتم مبهرج ومفزع يضيفى غرابة ما على يده المشعرة.

"إنهم في كل مكان" هكذا سيقول باهتمام تام، في كل مكان ، إذا ذهبنا إلى حفلة حيث يتواجد خمسة عشر، أو عشرون شخصاً، بالتأكيد تستطيع أن تجد بينهم، نعم بالتأكيد، عميلاً واحداً على الأقل.

لنقل أنني أتحدث مع "إيفان إيفانوفيتش" فمن يستطيع أن يقسم أن "إيفان إيفانوفيتش" يمكن الوثوق به؟

أو لنقل أن هناك رجلاً يعمل لديّ في أحد مكنتاتي - أى نوع من المكنتات - ليست بالضرورة هذه المكنتة (أرغب في الاحتفاظ بكل الأمور الشخصية بعيداً عن هذا، تفهمنى..) - حسناً ، كيف أستطيع معرفة أنه ليس عميلاً ؟ إنهم في كل مكان، أكرر في كل مكان.. إنها جاسوسية ماهرة ومتقنة.. .. أذهب إلى حفل، كل الضيوف يعرفون بعضهم البعض، ورغم ذلك لا شئ يضمن أن هذا

الشخص المتواضع المذهب (إيفان إيفانوفيتش) ليس فى الحقيقة..

وأوما "فينشتوك" برأسه إيماءة لها معنى.
سرعان ما بدأت أشك أن "فينشتوك" رغم حرصه الشديد، كان يشير إلى شخص محدد.
وبشكل عام، مهما كان من يتحدث معه، سوف يخرج بانطباع أن "فينشتوك" إما يقصد محاوره أو صديقاً مشتركاً.

أما أكثر الأشياء الجديرة بالملاحظة فهى، ويستعيد "فينشتوك" هذه الحادثة - بفخر - أن حاسته لم تخدعه: فالشخص الذى يعرفه جيداً، الصديق، سهل المعشر، الصديق مثل أحد أتباع الرب (حسب تعبير "فينشتوك") واقعياً يتحول إلى سوفيتى جبان وحاقد.
وتكون لدى انطباع بأنه سيكون أقل أسفاً عندما يترك جاسوساً يفلت من أن يفقد فرصة يُلْمَح فيها للجاسوس بأنه، "فينشتوك"، قد اكتشفه.

و"سمروف" حتى لو كان يحيط به الغموض، ولو كان ماضيه يبدو غير واضح، هل من المحتمل أن يكون.....؟

على سبيل المثال، أراه خلف الطاولة فى بدلته السوداء البسيطة، وشعره الممشط الناعم، بوجهه واضح القسمات الشاحب.. وعندما يدخل زبون، يطفى سيجارته التى لم ينته من تدخينها على حافة منفضة السجائر،

ويفرك يديه النحيلتين، يحضر باهتمام احتياجات المشتري أحياناً - خاصة إذا ما كان الأخير سيدة - يبتسم ابتسامة خافتة، ليعبر إما عن الاهتمام بالكتب بشكل عام، أو ربما سخرية من نفسه وهو يقوم بدور البائع، ويعطى نصيحة ذات قيمة: هذا أحق بالقراءة، بينما ذلك صعب بعض الشيء، هنا الصراع الأبدى بين الجنسين موصوف بأكثر الطرق إمتاعاً، وهذه الرواية ليست عميقة لكنها رائعة، مسكرة، أتعرفين، مثل الشمبانيا.

وتصطحب معها السيدة التى اشترت الكتاب، السيدة ذات الشفاه الحمراء والبالطو الفرو الأسود، صورة جذابة، اليدان الرقيقتان اللتان تلتقطان الكتب بتؤده، الصوت اللطيف، الابتسامة المرفرفة، والتصرفات المثيرة للإعجاب.

وفى عائلة "خروشوف"، كان "سمروف" - قد بدأ يترك انطباعاً مختلفاً على شخص ما.

كانت حياة هذه الأسرة فى (٥ شارع بيكوك) فائقة السعادة. كان والد "إيفجنيا" و"فانيا" والذى يقضى جزءاً كبيراً من العام فى لندن، يرسل لهما شيكات سخية، كذلك كان "خروشوف" يحقق دخلاً ممتازاً.

على كل - لم يكن ذلك هو المهم: فحتى لو كانوا بلا نقود، لن يتغير شىء، ستحاط الأختان بنفس نسائم السعادة، الآتية من اتجاه مجهول ورغم ذلك يشعر بها أكثر الزوار كآبة وفقداناً للإحساس.

يبدو الحال كما لو أنهما قد ابتدأتا رحلة مبهجة:
فهذا الطابق العلوي يبدو كما لو كان ينزل مثل مثل منطاد،
ولا يستطيع المرء تحديد بدقة مصدر تلك السعادة.
نظرت إلى "قانيا"، وبدأت اعتقد أنني اكتشفت
المصدر، فسعادتها تكمن في أنها لا تتحدث. أحياناً تسأل
سؤالاً مختصراً، وعند حصولها على الإجابة تعود سريعاً
إلى صمتها، محدقة فيك بعينيها الجميلتين ذات النظرة
المندهشة والمصابة بقصر النظر. ذات مرة سألت
(سمروف). أين والداك؟

أجاب: "في فناء كنيسة بعيدة" ولسبب ما خفض
رأسه لأسفل قليلاً. قالت: "إيفجينيا" التي كانت تتقاذف
كرة "بنج - بونج"، في يدها، أنها تستطيع أن تتذكر أمها
بينما "قانيا" لا تستطيع.

في هذه الأمسية لم يكن إلى جوار "سمروف" أحد
سوى "موخين" الذي من الصعب اجتنبه: فلقد ذهبت
"ماريانا" إلى حفل موسيقى، و"خروشوف" كان يعمل في
حجرته، أما "رومان بوجدانوفيتش" فلقد مكث في بيته
كعادته كل يوم جمعة ليكتب مذكراته.

في هدوء، جلس "موخين" المتأنيق صامتاً، ومن
حين إلى آخر يضبط مشبك، النظارة الأنفية فوق أنفه
النفيس.

كان في منتهى الشياكة، ودخن سجائر إنجليزية

أصلية . انتهز "سمروف" فرصة صمت "موخين" وأصبح فجأة ثرثاراً أكثر من المرات السابقة مخاطباً بالأساس "فانيا"، بدأ يحكى كيف هرب من الموت.

قال "سمروف" حدث ذلك فى "يالطا Yalta" عندما كانت القوات الروسية البيضاء قد غادرت توأ، رفضت أن يقوموا بترحيلى مع الآخرين، فلقد خططت لتشكيل وحدة مناصرة للقوات البيضاء تبدأ فى مقاتلة القوات الحمراء.

فى البداية اختبأنا فى التلال.. وخلال إحدى المواجهات تعرضت للإصابة.. مرت الرصاصة مباشرة فى جسدى، وبالكاد أخطأت رئتى اليسرى، وعندما أفقت وجدت نفسى ممدداً على ظهرى، بينما النجوم تسبح فوقى. ماذا فى وسعى، كنت أنزف حتى الموت، وحيداً فى أحد التحصينات الجبلية.

قررت أن أحاول الذهاب إلى "يالطا" رغم ما فى ذلك من مجازفة كبيرة، لكننى لم أستطع التفكير فى أية طريقة أخرى.

تطلب ذلك مجهوداً فائقاً. سافرت طوال الليل ، وغالباً كنت أزحف على يدى وركبتى، وأخيراً، عند الفجر، وصلت إلى (يالطا).

كانت الشوارع لا تزال غارقة فى النوم. فقط من ناحية محطة السكة الحديد تنتهى إلى أذننى صوت طلاقات ، بلا شك كان أحد الأشخاص يعدم هناك.

كان لى صديق طيب، يعمل طبيباً للأسنان، ذهب

إلى منزله وصفت أسفل النافذة ، خرج ليرى من ، تعرف
على، وسمح لى بالدخول على الفور.. واستلقيت مختبئاً
عنده حتى شفى جرحى.

وكانت له ابنة شابة قامت بتمريضى بمنتهى
التعاطف، لكن هذه قصة أخرى.

كان واضحاً أن وجودى قد عرض منقذى إلى
خطر رهيب، لذا كنت أتعجل المغادرة، لكن إلى أين
أذهب؟.

فكرت فى ذلك مراراً، وقررت الرحيل شمالاً،
حيث يشاع أن الحرب الأهلية قد عاودت الاندلاع مجدداً.
وهكذا، ذات مساء عانقت صديقى الطيب مودعاً
إياه، منحنى بعض النقود، التى - بإذن الله - سوف أردّها
له يوماً ما، وها أنا أمشى مجدداً فى شوارع "يالتا"
المألوفة. كانت لى لحية ونظارة، وأرتدى جاكيت عسكرياً
قديماً ، توجهت مباشرة إلى المحطة ، حيث كان يقف أحد
جنود الجيش الأحمر عند مدخل الرصيف يفحص
الأوراق.

كان لدى "جواز سفر يحمل اسم "سوكولوف"
طبيب بالجيش. رمقنى الحارس الأحمر بنظرة متفحصة ،
ثم رد لى الأوراق، وكان كل شىء سيمر على خير لولا
هذه الخردلة الغبية من سوء الحظ فجأة سمعت صوت
امرأة تقول بهدوء تام: "إنه من البيض، أعرفه جيداً".
حاولت أن أتماسك وأتظاهر بالثقة وأنا أمر إلى الرصيف

دون تلفت. ولم أكد أسير ثلاث خطوات حتى سمعت صوتاً، لرجل هذه المرة، يصرخ "توقف!". فتوقفت. أحاط بى جنديان وامرأة بدينة متوردة الخدين ترتدى قبعة عسكرية من الفراء. قالت المرأة: "نعم" إنه هو"، خذاه.

تعرفت على هذه الشيوعية و كانت تعمل فى السابق كخادمة لدى أحد أصدقائى. واعتاد الناس أن يتندروا بأنها تميل إلى ، لكننى دائماً ما وجدت بدانتها وشفتيها الشهوانيتين. عوامل منفرة لى.

بعد ذلك ظهر ثلاث جنود آخرين وأحد المفوضين من الحزب الشيوعى يرتدى ملابس نصف عسكرية. قال : تحرك. تصرفت بلا مبالاة، وأشرت ببرود إلى ضرورة وجود خطأ ما.

قال المفوض: "سنبحث ذلك الأمر فيما بعد". ظننت أنهم سيأخذوننى حيث يستمر استجوابى، لكننى سرعان ما أدركت وجود أشياء أسوأ من ذلك بقليل. فعندما وصلنا إلى مستودع شحن يقع خلف المحطة مباشرة، أمرت أن أخلع ملابسى وأقف مقابل الجدار.

رفعت يدى داخل الجاكيت العسكرى، متظاهراً بفك أزراره، وفى اللحظة التالية أطلقت الرصاص على جنديين بمسدسى الـ "بروننج"، جريت إنقاذاً لحياتى. وبالطبع أطلق الباقون الرصاص على.

وأطاحت رصاصة بالكاب من فوق رأسى . جريت حول المستودع، وقفزت فوق سور، وأطلقت

الرصاص على رجل هاجمنى بمجراف، وطلقت أجرى
بين قضبان السكك الحديدية، وقفزت إلى الجانب الآخر
أمام قطار يقترب لتفصلنى عربات القطار عمن
يطاردونى، وواصلت الفرار.

استمر "سمروف" يحكى كيف أنه تحت جناح
الظلام، مشى إلى البحر، ونام بين بعض البراميل
والحقائب فى الميناء، واستولى على كيس بقسمات
وزجاجة من خمر الـ "كرميان". وقرب الفجر، فى
الضباب، أبحر بمفرده فى قارب صيد، ليتم انقاذه بعد
خمسة أيام من الإبحار وحيداً بواسطة مركب شرعى
يونانى.

وتحدث بصوت هادئ، حقيقة، يكاد يكون أحادى
النغمة، كما لو كان يتحدث عن أمور عادية.
أصدرت "إيفجنيا" صوتاً يدل على التعاطف،
وأنصت "موخين" بتعاطف وحصافة، ومن حين لآخر
يجلى حنجرته بهدوء، كما لو كان لا يستطيع منع نفسه
عن الشعور بالإثارة تجاه الحكى، والشعور بالاحترام
و إما الحسد - حسد صحى ونافع - تجاه رجل واجه؛ بلا
خوف وبصرامة، الموت.

بالنسبة لـ "فانيا" - لاء، لم يعد من مجال لمزيد من
الشك، فبعد ما كان لابد قد مالت لـ "سمروف". كم كانت
رموشها ساحرة وهى تؤكد حديثه، وكم كان ارتعاشها
مبهجاً عندما أنهى "سمروف" حكايته، وبأية نظرة رمقت

أختها - نظرة جانبية ناعمة وخاطفة - لتؤكد أن الآخرين لم يلاحظوا إثارتها.

.. ساد الصمت.. فتح "موخين" علبة سجائره المعدنية التي تشبه مسدساً.

فى قلق نبهت "إيفجينا" نفسها أن الوقت قد حان لتدعو زوجها ليتناول الشاي لكنها اتجهت إلى المدخل وقالت بصوت غير مسموع شيئاً ما عن "الكيك". فقفزت "فانيا" من فوق الكنبه وخرجت هى الأخرى، التقط "موخين" منديلها من فوق الأرض ووضعها بحرص على المنضدة.

سأل "سمروف": هل أستطيع تدخين سيجارة من سجائرك؟

قال "موخين": بالتأكيد.

قال "سمروف": دائماً ما يكون للسجائر الإنجليزية رائحة حلوى الخوخ.

قال "موخين": أو "المولاس" لسوء الحظ. وأضاف بنفس نبرة الصوت.. لم يكن فى "يالطا" محطة سكك حديدية.

كان ذلك غير متوقع وشنيع . فقاعة الصابون المذهلة، المائلة إلى الزرقة، المشابهة لقوس قزح، مع الانعكاس المنحنى للنافذة على سطحها اللامع، تكبر الفقاعة وتتمدد، وفجأة لا يصبح لها وجود هناك، وكل ما

يتبقى مجرد أثر لبقايا رطوبة تخطبك فى وجهك. قال "موخين"، مخترقاً الصمت غير المحتمل، قبل الثورة - حسب ما أعتقد - كان هنا مشروع سكك حديدية للربط بين "يالطا" و"سمفربول". وأنا أعرف "يالطا" جيداً، ذهبت إليها عدة مرات، قل لى، لماذا، اخترعت كل هذا الهراء؟!

بالطبع استطاع "سمروف" إنقاذ الموقف، استطاع التملص منه باختراع شيء ما جديد وماهر، بوصفه الملاذ الأخير، مدعماً بنكتة مضحكة ما تفتت نتيجة لهذه السرعة المذهلة.

ولم يفقد "سمروف" هدوءه فقط، لكنه فعل أسوأ الأشياء الممكنة، خفض صوته، وقال بصوت متحشرج: "أرجوك" اتوسل إليك، أجعل هذا الأمر بينى وبينك فقط". كان واضحاً أن "موخين" شعر بالخجل لهذا الرفيق المسكين المذهل، ضبط نظارته الأنفية، وابتدأ قول شيء ما لكنه توقف لفترة قصيرة، فلقد عادت الأختان فى هذه اللحظة.

وأثناء تناول الشاي، بذل "سمروف" مجهوداً عنيفاً ليبدو مرحاً. لكن بدلته السوداء الرثة المبقعة، ورابطة العنق الرخيصة، المعقودة عادة بطريقة تبدو كما لو كانت تخفى مكاناً تالفاً، والليلة كشفت عن أثر لجرح مثير للشفقة وعن بثرة لامعة تبدو من خلال بقايا بنفسجية اللون لبودرة "التالك" على نقه.

إن - هذا كل شيء.. فبعد كل ما سبق لا يوجد -

فى الحقيقة - أى لغز بشأن "سمروف" ، فهو مجرد ثرثار عادى، ومن الآن بلا قناع؟ فهذا كل شىء...
لا- اللغز باق. فذات مساء، فى منزل آخر، اكتسبت صورة "سمروف" بعداً جديداً وغريباً، كان يدرك بالكاد فيما سبق.

كان السكون والظلمة يسيطران على الحجره. وهناك مصباح صغير فى الركن تظله صحيفه ، ولقد اكسب ذلك الصفحه المعتاده للصحيفه جمالاً شفافاً مذهلاً، وفى هذا الحاله من الظل الناقص، تحولت المحادثه فجأة إلى "سمروف".

بدأ بكلام تافه. فى البدايه كان الكلام متشظياً وغامضاً، وبعد ذلك توالى التلميحات إلى اغتيالات سياسيه حدثت فى الماضى، ثم ذكر الاسم المرعب لعميل مزدوج مشهور فى روسيا القديمه، وكلمات منفصله مثل "دم.. كثير من الضيق.. يكفى..". وتدرجياً أصبحت هذه المقدمة من السيره الذاتيه متماسكه ومترابطه، وبعد تعليق مختصر عن نهايه هادئه نتيجة لمرض عضال، وخاتمة غريبه لحياه حقيره ووحيدده، ذكر ما يلى بوضوح:
"الآن - هذا تحذير . إحدروا شخصاً بعينه.

إنه يقتفى أثرى. يتجسس، ينصب الشراك، يخون. وهو مسئول عن موت كثيرين. مجموعه من المهاجرين الشباب فى طريقها لعبور الحدود لتقوم بالعمل فى أحد الإنفاق فى روسيا، فتنصب الشراك وتهلك المجموعه. إنه

يتجسس ينصب الشراك ويخون.
خذوا حذرکم. إحدروا رجالاً ضئيل الحجم يرتدى
السواد، لا تتخذوا بمظهره المتواضع. إننى أنطق
بالحق.."

سأل "فينشتوك": من يكون هذا الرجل؟
وتأخر مجئ الإجابة.

"من فضلك" أزيف" أخبرنا من يكون هذا الرجل؟
وتحت أصابع "فينشتوك"، ثانية تحرك "صحن
الفنجان" فوق الصحيفة متتبعا الحروف الهجائية، تاركاً
خطاً هنا وهناك أثناء توجيهه للعلامة - على حافظته ناحية
هذا الحرف أو ذاك.

وقام بستة من هذه التوقيفات قبل أن يتجمد مثل
سلحفاة مصدومة.

كتب "فينشتوك" وقرأ بصوت مرتفع إسماً مألوفاً.
قال : هل تسمع؟ موجهاً الكلام إلى شخص ما فى
الركن الأكثر ظلمة من الحجرة.

قال الشخص: "عمل جميل بالطبع لكننى لست فى
حاجة لأن أخبرك أننى لم أصدق هذا الكلام لثانية واحدة.
أمل ألا يغضبك هذا الكلام. ولماذا يغضبك؟ فكثيراً ما
يحدث فى الجلسات أن تتطرق الأرواح بكلام لا معنى له".
وتظاهر "فينشتوك" بالضحك لكلامه هذا.

وأصبح الوضع مثيراً، فباستطاعتى أن أحصى
ثلاث نسخ من "سمروف"، بينما الأصلى لا يزال مجهولاً.

ويوجد هذا الموقف فى التصنيف العلمى.
فمنذ فترة طويلة مضت وصف "لينويس" أصنافاً
شائعة من الفراشات، مضيفاً هذا التعليق المقتضب: "وذلك
فى الصنف المعروف بـ "براتيس ويستمانى".

يمر الزمن، وفى إطار السعى الحثيث لتحقيق
الدقة، أطلق متخصصون جدد اسماً على كل الأنواع
الألبية لهذه الأصناف الشائعة، وهكذا - سريعاً لم تتبق
بقعة فى أوروبا يجد فيها المرء نوعاً بلا اسم، وينطبق
ذلك حتى على الأصناف المحلية.

فأين النوع، النموذج، الأصل؟

عندئذ، وفى النهاية، ناقش عالم حشرات مهم فى
بحث تفصيلى المركب الكلى للأنواع المسماة، ووافق عليه
بوصفه الممثل لمركب مطابق يرجع إلى مائتى سنة
مضت.

وهكذا خبت أهمية الصنف الاسكندنافى الذى
جمعه "لينويس"، ووضع هذا التعيين للهوية كل شىء فى
موضعه الصحيح.

وبنفس الطريقة السابقة صممت على التعمق
للوصول إلى "سمروف" الحقيقى، منتبهاً من البداية إلى أن
صورته قد تأثرت بالأحوال المناخية المنتشرة فى مختلف
الأرواح، وهكذا - بداخل الروح الباردة ينتحل مظهراً
واحداً، بينما فى روح متوهجة تصبح له تلوينات مختلفة.
كنت قد بدأت أستمتع بهذه اللعبة. شخصياً، نظرت

إلى "سمروف" دون أية عاطفة. فثمة تحيز فى محاباته وجد منذ البداية مما سمح بقدر بسيط من الإثارة . كذلك خبرت إثارة جديدة بالنسبة لى . تماماً مثل العالم الذى لا يهتم بما إذا كان لون جناح - ما - جميلاً أو لا ، أو هل التحديدات الموجودة عليه رقيقة أم بشعة المنظر (فقط يهتم بالخواص التصنيفية) ، لقد اهتمت بـ "سمروف" دون أية اختلاجة جمالية ، وبدلاً عن ذلك وجدت اختلاجة متحمسة نحو تصنيف أفنعة "سمروف" التى كشفها عن غير قصد. لم تكن المهمة يسيرة على الإطلاق . فعلى سبيل المثال ، عرفت تمام المعرفة أن "ماريانا" - البايخة - رأت "سمروف" ضابطاً متوحشاً و ألعياً ينتمي للجيش الأبيض ، " من هذا النوع الذى يتجول معلقاً الناس من المشانق يميناً ويساراً " كما أخبرتني " إيفجنيا " فى سرية تامة أثناء حديث خاص بيننا . و لتحديد هوية هذه الصورة بدقة ، كان على أن أصبح على دراية بحكاية "ماريانا" كاملة ، بكل الخواطر الثانوية التى استيقظت داخلها عندما نظرت إلى (سمروف) ؛ الذكريات الأخرى - الانطباعات الأخرى عن المخاطرة - وكل هذه الآثار التتويرية التى تتفاوت من روح إلى روح.

كانت محادثتى مع "إيفجنيا" مباشرة بعد رحيل "ماريانا نيكليفنا" ، وقد قيل إنها ذاهبة إلى وارسو، ورغم ذلك فثمة قرائن غامضة تشير إلى رحلة تقصد أبعد من ذلك شرقاً، وربما عودة إلى القطيع. وهكذا حملت "ماريانا"

معها فكرة خاصة عن "سمروف" ستحفظها حتى نهاية أيامها، مالم يعد لها شخص ما نشاطها.

سألت "إيفجنيا" وماذا عنك؟ ما الفكرة التي قمت بتكوينها؟ أجابت: أوه، هذا أصعب من أن يقال بأكمله في مرة واحدة، وزينت ابتسامة كلاً من شبهها بكلب "بول دوج" ظريف والظل المخملي لعينيها.

... "من فضلك" - قلت بإصرار.

قالت - بسرعة - : في البداية هناك خجله . نعم، نعم، قدر كبير من الخجل. كان لى ابن عم، شاب مهذب ولطيف جداً، لكن حينما يضطر إلى مواجهة حشد من الغرباء في قاعة استقبال حديثة، يلجأ إلى التصفير ليمنح نفسه فرصة ليتنفس، وفي نفس الوقت هو لا مبال وخشن. ... نعم - أكمل؟

... دعنى أتذكر، ماذا هناك أيضاً... الحساسية، بل سأقول الحساسية الشديدة، وبالطبع الشباب والافتقار إلى الخبرة مع الناس . لم يكن هناك شيء آخر يمكن الحصول عليه منها ولو عن طريق تملقها. وجاء الطيف الذى ابتدعته شاحبا ويفتقر إلى الجاذبية. ورغم ذلك كانت نسخة "سمروف" الخاصة بـ "قانيا" هى التى حظيت بانتباهى من بين النسخ كلها وفكرت فيها باستمرار. أتذكر كيف، ذات مساء، كادت الفرصة أن تواتبنى بإجابة. فلقد سعدت من حجرتى الكئيبة إلى شقتهم فى الطابق السادس. ولم أجد سوى الأختين بصحبة (خروشوف) و(موخين) وهم فى

طريقهم إلى المسرح.

لم يكن لدى شيء أفضل من مصاحبتهم إلى موقف التاكسي. وفجأة لاحظت أنني نسيت مفتاح الباب الرئيسي للمنزل. قالت "إيفجنيا": أوه - لا تقلق، لدينا نسختان. ومن حسن حظك أننا نعيش في نفس المنزل. خذ نسخة، ويمكنك إعادتها غداً. تصبح على خير.

مشيت باتجاه المنزل، وفي الطرق خطرت لي فكرة رائعة. تخيلت شريراً أنيقاً من أشرار الأفلام يقرأ مستنداً وجده على مكتب شخص آخر - صحيح ، كانت خطتي نظرية وناقصة . لقد أحضر "سمروف" ، ذات مرة، لـ "فانيا" زهرة "أوركيد" صفراء داكنة الترقيط، تشبه إلى حد ما ضفدعة. والآن أستطيع أن أتحقق مما إذا كانت "فانيا" قد احتفظت ببقايا الزهرة الأثيرة في درج سري. وفي مرة أخرى أحضر لها مجلداً صغيراً لـ "جميلوف"، شاعر المقاومة، وقد يكون من الأفضل أثناء تفقدي أن أتحقق مما إذا كانت الصفحات قد فصلت عن بعضها، وهل يوجد الكتاب على منضدتها المسائية.

كذلك كانت هناك صورة ، التقطت بواسطة "فلاش" من الماغيسيوم، وفيها يتبدى "سمروف" بجلاء - نصف بروفيل، شاحب جداً، حاجبه مرفوع - وإلى جواره تقف "فانيا" بينما "موخين" متوار في الخلفية.

وبشكل عام يمكن القول بأن هناك كثيراً من الأشياء التي يمكن اكتشافها.

قررت إذا ما صادفت الخادمة (وهي فتاة جميلة جداً - بالمناسبة) سأفسر لها الموقف بأنه كان على أن أجيئ لإعادة المفاتيح، وبحرص فتحت باب شقة "خروشوف" وتسالت على أطراف أصابعي إلى قاعة الاستقبال.

من المسمى أن تدخل غرفة أخرى بغتة. تجمد الأثاث من الدهشة عندما أضأت النور - كان شخص ما قد ترك رسالة على المنضدة، وكان المظروف ملقى مثل أم عجوز لا نفع منها، وبدت الورقة الصغيرة جالسة مثل رضيع قوى ونشيط . لكن اللهفة، رعشة الإثارة والحركة المتهورة ليدي، جميعها ثبتت أنها غير ضرورية. كان الخطاب من شخص غير معروف لى، من عم اسمه "باشا". ولم يحتو ولو على إشارة إلى "سمروف" - وإذا ما كانت مشفرة، فأنا لأعلم لى بمفتاح الشفرة.. سريعا عبرت إلى حجرة الطعام.

كان هناك زيبب ومكسرات فى طبق، وإلى جواره كتاب مفتوح وعلى وضع القراءة ، رواية فرنسية بعنوان (مغامرات أريان) للكاتب (جون فيل روسيه).

وفي حجرة نوم "فانيا" حيث انتقلت بعد ذلك، كان الجو باردا بسبب الشباك المفتوح. ووجدت غرابية فى النظر إلى غطاء السرير المزركش وإلى منضدة أدوات الزينة التى تشبه المذبح، حيث يلمع الزجاج المقطوع فى

غموض.

لم يكن هناك أثر لزهرة "الأوركيد"، لكن عوضاً عنها كانت هناك صورة مسندة إلى "الأباجورة" المجاورة للسرير. وكان "رومان بوجدانوفيتش" هو الذى التقطها. وتظهر فيها "فانيا" جالسة بساقيها اللوضاءتين متقاطعتين ، وخلفها يظهر وجه "موخين" الهزيل، وإلى يسار "فانيا" يستطيع الواحد أن يتبين "كوغا أسود" - هو ما تبقى بعد قطع الجزء الذى يظهر فيه "سمروف".

.. دليل تالف !

على سطح الوسادة ذات الغطاء المزركش، الخاصة بـ "فانيا" ، تبدت فجأة فجوة نجمية الشكل، الأثر العنيف لقبضتى ، وفى اللحظة التالية كنت فى حجرة الطعام ألتهم المكسرات وأرتعش.

هنا تذكرت المكتبة الصغيرة بقاعة الاستقبال، فأسرعت إليها فى هدوء. لكن فى هذه اللحظة تناهى الصرير المعدنى لمفتاح من ناحية الباب الأمامى . بدأت أترجع بسرعة، مطفئاً النور أينما ذهبت، حتى وجدت نفسى فى صالون صغير مكسو بالساتان إلى جوار غرفة الطعام. تخبطت فى الظلام متحسساً ما يحيط بى حتى صادفت أريكة فاستلقيت كما لو كنت سأغفو عليها.

فى نفس الوقت كانت الأصوات التى جاءت من الصالة للأختين ولـ "خروشوف" . كانوا يودعون "موخين".
ألن يدخل لدقيقة؟ لا - كان الوقت متأخراً ، ولن

يدخل. متأخر؟ هل انتقالي الطيفي من حجرة إلى أخرى استغرق ثلاث ساعات؟ فبينما فى مسرح ما استهلك شخص ما هذا الوقت لأداء مسرحية سخيفة شاهدها عدة مرات، وهنا لم يقم رجل ما بشيء سوى الانتقال بين ثلاث حجرات. ثلاث حجرات: ثلاثة فصول . هل استغرقت ساعة كاملة فى تأمل خطاب بقاعة الاستقبال، وساعة أخرى لتأمل كتاب فى حجرة الطعام، وساعة ثالثة لتأمل صورة فى البرودة الغريبة لحجرة النوم؟

... لا يوجد شيء مشترك بين زمنى و زمنهم.

وفى الغالب توجه "خروشوف" مباشرة إلى حجرة النوم، بينما توجهت الأختان إلى حجرة الطعام.

لم يخلق بأحكام الباب المؤدى إلى مخبئى المعتم مثل الفولاذ الدمسقى واعتقدت أنه قد حان الوقت لأعرف ما أردت عن "سمروف".

قالت "فالينا": "... لكنى منهكة إلى حد ما"، وأصدرت صوتاً نقل لى انطباعاً بأنها تتثائب، وأكملت "أعطني بعضاً من "جعة الجنور"، لا أريد الشاى".

وكان هناك صوت لاحتكاك طفيف نتج عن تحريك مقعد باتجاه المنضدة . ساد صمت طويل بعده جاء صوت "إيفجنيا" ، كان قريباً جداً لدرجة أننى ألقىت نظرة حذرة باتجاه الشق الذى يمر منه الضوء، كائن تقول "الشيء الرئيسى هو أن تدعيه يحكي لهم بطريقته وبتعبيراته . هذا هو الشيء الرئيسى . فرغم كل شيء هو

يتحدث الإنجليزية بينما الألمان لا يتحدثونها . لست متأكدة
أننى أفضل كعكة الفواكه هذه".

الصمت مجدداً . وبعده قالت "قانيا" حسناً،
سأنصحه بأن يفعل ذلك، رنْ شىء ما ثم سقط - ملعقة
ربما - وعندئذ سادت فترة أخرى. طويلة . من الصمت.
قالت "قانيا" - ضاحكة - أنظري لهذا.

تساءلت أختها من أى شىء صنع، من الخشب؟
قلت "قانيا" وهى تضحك : لا أعرف.

بعد برهة ، تشاءبت "إيفجنيا" وكان تتأوُّبها يدل
على شعور بالراحة والدفاء أكثر من "قانيا" ، وقالت:
"الساعة توقفت.." وكان ذلك كل شىء. جلسنا لبعض
الوقت، وأصدرنا صلاصة بشىء أو آخر : كانت كسارة
البندق تكسر ثمرة ثم تعود إلى مكانها فوق مفرش
المنضدة بواسطة إبهام يد ما، لكن لم يكن هناك المزيد من
الكلام، وحينئذ تحركت المقاعد ثائية "أوه - تستطيع تركها
هنا"، قالت "إيفجنيا" ذلك بفتور وتباطؤ، وهكذا تلاشى فجأة
الشق السحري الذى توقعت أن أعرف الكثير من خلاله.
وفى مكان ما صفق باب ، وجاء صوت "قانيا" من بعيد ،
كانت تقول شيئاً ما، بدا غامضاً وغير مفهوم، وبعندئذ ساد
الصمت والظلام من جديد.

استلقيت على الأريكة لفترة أطول، وفجأة انتبهت
أنه الفجر. حينئذ تسالت بحذر إلى السلم وعدت إلى
حجرتى.

تخيلت "قانيا" في حالة أكثر حيوية، مخرجة طرف لسانها إلى أحد جانبي فمها وهي تقطع بمقصها الصغير الجزء الذى يظهر فيه "سمروف" غير المرغوب فيه. لكن قد لا يكون الأمر هكذا. فأحياناً يتم قطع شيء ما لأجل وضعه فى إطار منفصل.

ولتأكيد هذا التخمين ، بعد أيام معدودة وصل العم "باشا" على غير المتوقع تماماً، من ميونخ. كان فى طريقه إلى لندن ليزور أخاه ومكث فى برلين لمدة يومين - فقط. لم ير المتهتك العجوز أبناء أخيه منذ فترة طويلة جداً، وكان ميالاً إلى استدعاء كيف اعتاد أن يضع "قانيا" البكاءة على ركبتيه ويضربها على مؤخرتها. للوهلة الأولى بدا هذا العم "باشا" ثلاثة أضعاف عمرها ، لكن بمجرد أن تنظر إليه عن قرب أكثر سيتضح تقدمه فى العمر تحت عينيك المجردتين.

فى الحقيقة، لم يكن فى الخمسين بل فى الثمانين ، ولا يستطيع المرء تخيل أى شيء أكثر إثارة للفرح من هذا الخليط من الشباب والتداعى. جثة مرحة فى بدلة زرقاء، على كتفيه قشر الشعر، حليق الذقن، بحاجبين كثيفين وخصلات شعر عجيبة تبرز من فتحتى أنفه. كان العم "باشا" متحركاً، مثيراً للضوضاء وفضولياً . وفى أول ظهور له استجوب "إيفجنيا" فى همس بشأن كل ضيف، وبوضوح شديد كان يشير إلى هذا الشخص ثم ذاك،

مستخدماً سبابته التي تحمل في نهايتها ظفراً أصفر اللون وطويلاً بشكل وحشى.

فى اليوم التالى حدثت واحدة من المصادفات التى يتورط فيها القادمون الجدد الذين - لسبب ما - يتوافدون كثيراً، كما لو كان هناك قدر هزلى عديم الطعم على خلاف (أبوم)، الخاص بـ "فينشتوك"، الذى - فى يوم وصولك من رحلة ما.. تجد أنه ذات الرجل الذى تصادف و جلس مواجهاً لك فى عربة القطار.

لأيام متعددة انتابني شعور غريب بعدم راحة فى موضع اختراق الرصاصة لصدرى، شعور مشابه لرسم تخطيطى فى غرفة مظلمة. ذهبت إلى زيارة طبيب روسى، وهناك، بالطبع كان العم "باشا" جالساً فى غرفة الانتظار. وبينما كنت أتجادل مع نفسى هل أبادره بالكلام أم لا (مفترضاً أنه منذ المساء الماضى كان لديه الوقت لينسى كلاً من وجهى واسمى)، هذا الثرثار العجوز، الكاره لإخفاء مجرد حبة من مخزون غلال خبرته، كان قد ابتدأ حديثاً مع سيدة مسنة لا تعرفه، لكنها كانت بلا شك مـمة بالغرباء أصحاب القلوب المنفتحة.

فى البداية لم أتابع حديثهما، لكن فجأة هزنى اسم "سمروف" وما عرفته من كلمات العم "باشا" الطنانة والمبتذلة. كان مهماً جداً لدرجة أنه بمجرد اختفائه وراء باب حجرة الطبيب، غادرت مسرعاً دون الانتظار لدورى، وفعلت ذلك بتلقائية شديدة، كما لو كنت قد جئت

لعيادة الطبيب فقط لأسمع العم "باشا": (الآن انتهى العرض
وفى إمكانى أن أرحل)...

"تخلي"، هكذا قال العم "باشا"، البنت الصغيرة
تفتحت وأصبحت زهرة أصيلة . أنا خبير فى الزهور
واستنتجت على الفور أن هناك شاباً فى الصورة . وعندئذ
قالت لى أختها (أنه سر كبير يا عمى، فلا تخبر به أحداً،
إنها على علاقة بهذا الـ "سمروف") ، ليس أسوأ من غيره.
لكن الموقف نبهنى إلى التفكير فى زمن اعتدت فيه أن
أضرب العاشقة الصغيرة على مؤخرتها الصغيرة العارية
وهاهى الآن عروس - ببساطة إنها تعبه. حسناً هذا هو
الحال أيتها السيدة الطيبة، كان لنا اندفاعنا، والآن لندع
الآخرين يندفعون...

هكذا - لقد وقع الأمر، وحظى "سمروف" بمن
يحبه.

بلا شك ميزت "فانيا" ، قصيرة النظر لكنها
حساسة، شيئاً غير معتاد فى "سمروف" ، فهمت شيئاً عنه،
ولم يخدعها هدوءه. وفى ذات المساء، فى منزل عائلة
"خروشوف"، كان "سمروف" هادئاً ومتواضعاً بشكل
خاص.

والآن، على كل، عندما يعرف المرء أية سعادة قد
صدمته - نعم صدمته (فهناك سعادة شديدة القوة، بهبوبها
وهدير إعصارها ، تشبه الجائحة).
والآن من الممكن تمييز اختلاجة ما فى هدوءه ،

وحمرة البهجة تبدو خلال شحوبه الغامض.
يال الرب الرحيم، كيف يحملق فى "فانيا"...! سوف
تخفض أهدابها وترتجف فتحتا أنفها، وقد تعض على
شفتيها خفيفاً، لتجيب كل مشاعرها المفتونة. وفى تلك
الليلة بدا أنه لابد من وضع نهاية لشيء ما.
لم يكن "موخين" المسكين موجوداً هناك، فلقد ذهب
إلى لندن منذ عدة أيام - كذلك كان "خروشوف" غائباً،
وعلى سبيل التعويض، كان "رومان بوجدانوفيتش"...،
الذى كان يجمع مادة فى المفكرة التى كان يرسلها،
أسبوعياً، مع خادمته العجوز الحريصة إلى صديق له فى
تالين - أكثر إزعاجاً من أى وقت مضى. جلست
الأختان على الأريكة كما يحدث دائماً، ووقف "سمروف"
مسنداً كوعه إلى البيانو، محدقاً بوله إلى انسياب شعر
"فانيا" على وجنتيها داكنتى الحمرة.
لمرات متعددة قفزت "إيفجنيا" ودفعت برأسها
خارج النافذة، فلقد وعد العم "باشا" بالمجيء ليودعهم،
وأرادت أن تتأكد وتكون جاهزة لتفتح باب المصعد له.
قالت ضاحكة : أهيم به . ياله من شخصية .
يراهن أنه لن يسمح لنا بمصاحبته إلى المحطة . بأدب
سأل، "رومان بوجدانوفيتش" "سمروف" هل تعزف؟ وألقى
بنظرة ذات مغزى على البيانو.
أجاب "سمروف" بهدوء: اعتدت العزف فى وقت
ما. ورفع غطاء "البيانو" وحدق حالماً فى المفاتيح

المكشوفة للوحة المفاتيح ، ثم أعاد الغطاء ثانية.
"ألمح "رومان بوجدانوفيتش" بحميمية: أحب
الموسيقى، فهي تعيدنى إلى أيام الدراسة.
قال "سمروف" بنبرة أعلى: الموسيقى، الجيدة على
الأقل تعبر عما يستعصى على الكلمات، وهنا يكمن معنى
وغموض الموسيقى.

صرخت "إيفجنيا": هاهو - وغادرت الحجرة.
"وأنت، فارفار؟ سألها "رومان بوجدانوفيتش"
بصوته الخشن الغليظ "أنت يا ذات أصابع أرق من حلم..
إيه؟ تعال.. عزفى أى شىء.. القليل من الـ "ريتورنيللو".
هزت "فانيا" رأسها وبدت كما لو كانت ستغضب،
لكنها بدلاً من ذلك قهقهت وخفضت وجهها.

وبلا شك، ما آثار مرحها كان دعوة هذا المغفل
لها لتجلس إلى البيانو بينما روحها تهتز وتنساب مع لحنها
الخاص. عند هذه اللحظة بإمكان المرء أن يلاحظ فى
وجه "سمروف" رغبة شديدة العنف تتمنى أن يتعلق إلى
الأبد المصعد الذى يحمل "إيفجنيا" والعم "باشا"، وأن يسقط
"رومان بوجدانوفيتش" مباشرة بين فكى الأسد الفارسى
الأزرق المصور على السجادة، والأهم من ذلك أن اخفى
أنا: العين الباردة المصرية التى لا تكل.

بعد برهة. كان العم "باشا" موجوداً فى الصلاة
يلهث ويتنفس وصعوبة والآن دخل، بعد أن توقف قليلاً
عند العتبة ، مبتسماً ببله وداعاً يديه إحداها بالأخرى ،

و قال : " إيفجنيا " .. أخشى أنني لا أعرف أحداً من الموجودين هنا، تعال لتتولى مهمة تعريفنا ببعض.

قالت "إيفجنيا" يا إلهي! إنها ابنة أختك.

قال العم "باشا": الأمر كذلك إذن، وأضاف شيئاً شائناً عن الوجنات والخوخ.

"ربما لا يستطيع التعرف على الآخرين كذلك"
"تنهدت "إيفجنيا" وهي تقول ذلك، وبدأت تقدمنا بصوت مرتفع.

... "سمروف" ! قالها العم "باشا" في تعجب،
وارتفع حاجباه. "أوه - "سمروف" وأنا أصدقاء قدامى.
رجل سعيد، سعيد".

وأكمل بطريقته المزعجة ، مرتباً على ذراعي
"سمروف" وكتفيه . "وتظن أننا لا نعرف.. نحن نعرف كل
شيء عن هذا الموضوع.. سأقول شيئاً واحداً - اعتن بها!
إنها هبة من السماء" والتفت إلى "فانيا" وأضاف: "أتمنى
لكما السعادة يا طفلي" لكن "فانيا" ضاغطة بمنديل مكرمش
على فمها، جرت خارجة من الحجرة. أسرع "إيفجنيا"
خلفها وقد صدر عنها صوت غريب. ولم يلحظ العم "باشا"
أن ثرثرته غير المسئولة، غير المحتملة بالنسبة لمخلوق
حساس، قد دفعت "فانيا" إلى البكاء. جحظت العيون ،
ونظر "رومان بوجدانوفيتش" بفضول بالغ إلى "سمروف"
الذي ، بغض النظر عن مشاعره ، حافظ على هدوء لا
تشويه شائبة . قال العم "باشا" : الحب شيء عظيم ، وابتسم

"سمروف" بأدب ، وهذه البنت ثروة ، وأنت مهندس شاب ، أليس كذلك ؟ ولمهنتك مستقبل طيب . ودون الدخول في أية تفاصيل ، قال "سمروف" أنه على ما يرام . فجأة - خبط "رومان بوجدانوفيتش" ركبته واحتقن وجهه . قال العم "باشا" : سأثني عليك في لندن . فلدى اتصالات متعددة . وفجأة قال : لقد تأخرت ، تأخرت . حان الوقت لأرحل . وحق الرفيق العجوز المذهل في ساعته ، وصافحنا بكلتا يديه . وتحت تأثير نعيم الحب وسعادته ، فاجأنا "سمروف" واحتضنه .

"كيف استقبلت هذا؟... هناك شخص مهووس بك" قالها "رومان بوجدانوفيتش" بعد إغلاق الباب خلف العم "باشا" . عادت "إيفجنيا" إلى قاعة الاستقبال وسألت باندهاش : أين هو؟ هناك شيء سحري في اختفائه . وأسرعت إلى "سمروف" وقالت : من فضلك أعذر عمي . كنت مغفلة كفاية لأحكي له عن "فانيا" و"موخين" . يبدو أنه قد خلط بين الأسماء . في البداية لم أدرك ما ألم به من خبل .

تدخل "رومان بوجدانوفيتش" فارداً يديه وقال : "وأنا أنصت ظننت أنني في سبيلي للجنون . أكملت "إيفجنيا" : تعال ، تعال ، "سمروف" . ماذا بك؟ لا يجب أن تحزن هكذا . فرغم كل شيء ليس من قصد لإهانتك .

قال "سمروف" بصوت أجش : أنا بخير ، فقط لم

أكن أعرف. قالت "إيفجنيا" ما الذى تقصده بأنك لم تكن تعرف؟ الجميع يعرفون... فهذا الأمر مستمر منذ سنوات نعم بالطبع فهما يهيمنان ببعضهما، منذ سنتين تقريباً. إسمع، سأحكى لك حكاية مسلية عن العم "باشا": ذات مرة، عندما كان أصغر نسبياً، لا - لا تستدر عنى القصة مسلية جداً، ذات يوم عندما كان أصغر نسبياً اعتاد أن يمشى فى شارع "نفسكى".

* * *

بعد فترة قصيرة توقفت عن متابعة "سمروف"، وعندئذ شعرت أننى أصبحت أثقل، واستسلمت ثانية لإزعاج الجاذبية، واستعدت مجدداً لحمل السابق كما لو كانت كل هذه الحياة حولى لم تكن لعبة من خيالي، لكنها كانت واقعية، وكنت جزءاً منها، جسداً وروحاً. إذا لم تحب، لكن دون أن تعرف بدقة أن منافسك اللدود يُحب أم لا، وإذا كان المنافسون عدة ولا تعرف أيهما أوفر حظاً منك، وإذا عشت على ذلك الجهل المفعم بالأمل والذى يعينك على حل الفزورة وإلا ستعاني من إثارة لا تطاق، عندئذ يصبح كل شيء حسناً، وتستطيع الاستمرار فى الحياة. لكن للأسف عندما يتم الإعلان عن الاسم فى النهاية، تكتشف أنه ليس اسمك!

لكنها فاتتة، لدرجة تجعل العيون تمتلئ بالدموع، وبمجرد التفكير بها تتدفق بأعماق بشاعة السهد والأنين. وجهها الناعم، عيناها المصابتان بقصر النظر،

شفاتها الحساستان غير المطليتين، واللّتان تتشقّقان
وتنتفخان قليلاً من البرودة، ويتلاشى لونهما عند الحافتين،
ذائباً في لون قرمزي ملتهب يبدو في أمس الحاجة إلى
لمسة من جناح فراشة.

فساتينها القصيرة ذات الألوان الزاهية، ركبناها
الكبيرتان اللتان تتضغطان بقوة وإحكام لا يطاق عندما
تشاركنا لعب الورق، "سكات"، خافضة رأسها المجلجل
بشعر أسود ناعم فوق ورق اللعب، ويداها الرطبتان
الخشتان قليلاً مثل أيدي المراهقات، التي يتوق المرء إلى
لمسها وتقيلها، نعم كل شيء فيها موجد وعضال بطريقة
ما ، فقط في أحلامي المبلة بالدموع استطعت في النهاية
احتضانها وأن أشعر برقبته أسفل شفتي وبالفجوة القريبة
من عظمة الترقوة.

لكنها دائماً ما تتفصل وتبتعد ، لأستيقظ ومازلت
أرتجف. فماذا سيهمني إذا كانت غيبة أم ذكية، أو كيف
كانت طفولتها أو أية كتب قرأت، أو ما فكرتها عن الكون؟
في الواقع أنا لا أعرف أى شيء عنها، أصابتنى
نيران الحب بالعماء، تلك التي حلت محل كل شيء، والتي
- على النقيض من روح الإنسان (وهي غالباً سهلة المنال
ويمكن السيطرة عليها)، لا يمكن بأي حال الاستيلاء
عليها، تماماً مثلما لا يستطيع المرء أن يضم إلى مقتنياته
ألوان سحب الغروب فوق المنازل السوداء، وعبق زهرة
يستشقه بلا توقف، بفتحتي أنف متوترتين، لحد الإصابة

بالتسم ، لكن دون الاستحواذ على كل محتوى "التويج"
من هذا العبق.

ذات مرة، فى الكريسماس، قبل ذهابهم إلى حفل
راقص بدونى، لمحت - فى جزء المرأة عبر فرجة فى
الباب - أختها وهى تضع البودرة على كتفى "فانيا"
العاريتين.

وفى مناسبة أخرى لمحت "سوتيان" رقيقاً فى
الحمام. وبالنسبة لى كانت هذه أحداث مرهقة، لها تأثير
لذيذ لكنه مرعب على أحلامى، رغم أننى خلالها لم
أتجاوز أبداً إلى الأمل فى قبلة (ولا أعرف لماذا أبكى
دائماً عندما نتلاقى فى أحلامى). ما أحتاجه من "فانيا" لا
أستطيع أبداً أن أظنه للاستخدام الدائم أو للامتلاك بأى
حال من الأحوال، مثلما لا يستطيع المرء امتلاك زرق
السحابة أو عبق الزهرة. فقط عندما أدركت فى النهاية أن
رغبتى مصرة على أن تظل نهمة، وأن "فانيا" مجرد
ابتداع يخصنى، بدأت أشعر بالهدوء. وأصبح أكثر تعوداً
على إثارتى الخاصة، ومنها استخلصت كل الرحيق الذى
يمكن لرجل أن يستخلصه من الحب.

* * *

تدريجياً عاد انتباهى إلى "سمروف". وفجأة إتضح
أنه بدلاً من اهتمامه بـ "فانيا" وضع "سمروف" عينيه،
بمكر، على خادمة "خروشوف"، فتاة فى الثامنة عشرة من
عمرها، وتكمن جاذبيتها الخاصة فى النظرة الناعسة

لعينيها. أما هي نفسها يمكن اعتبارها أى شىء غير أن تكون ناعسة.

ومن المسلى أن تفكر أى من الوسائل الفاسدة فى لعبة الحب ستفكر بها هذه الفتاة متواضعة المظهر - وتدعى جرتشن أو هيلدا، لا أتذكر أيهما اسمها - عندما يغلق باب الحجرة ليضىء مصباح عار يتدلى من سلك طويل صورة خطيبها (رفيق قوى يرتدى قبعة المبتدئين). وتفاحة من منضدة سادتها. ومثل هذه الأشياء رواها "سمروف" بكل تفاصيلها، وبطريقة لا تخلو من تفاخر - لـ "فينشتوك"، الذى يمقت القصص غير المهدبة ويطلق عند سماع أى شىء مثير للشهوة لفظاً واضحاً وبليغاً. ولهذا السبب يتوق الناس إلى إخباره بأشياء لها هذه الطبيعة.

كان "سمروف" يصل إلى حجرتها عبر السلالم الخفية، ويقضى معها وقتاً طويلاً. وبدا أن "إيفجينيا" قد لاحظت شيئاً ما - خطوات سريعة عند نهاية الممشى، أو ضحكة مكتومة خلف الباب - لأنها ألمحت ببعض الإثارة إلى أن هيلدا (أوجرتشن) لها علاقة بأحد رجال الإطفاء. وخلال هذه المفاجأة العاطفية، تتحنح "سمروف" عدة مرات لتنظيف حلقه. أما الخادمة فبعينيها الساحرتين المخفوضتين لأسفل مرت عبر حجرة الطعام، وبيطء وحرص وضعت طبق فاكهة ونهديها على منضدة جانبية،

ثم توقفت، وهى على نفس الحالة الناعسة ، لتعيد خصلة شعر صفراء وقصيرة إلى ما وراء أذنها - ثم عاودت السير - مثل المسرمنين، إلى المطبخ ، وأثناء ذلك كان "سمروف" يفرك يديه كما لو كان على وشك الكلام، أو يبتسم فى المواضع الخاطئة خلال الحديث الدائر.

وبدا على وجه "فينشتوك" الضيق وبصق فى اشمزاز عندما أسهب "سمروف" مبتهجا، فى متابعة الخادمة أثناء تأدية عملها، منذ وقت قصير مضى، عندما كانت تدق بنعومة الأرض العارية بقدمين عاريتين، فلقد كان يتقافز مع هذه الخادمة ذات الوركين الطريين مثل القشدة، فى غرفتها الضيقة الصغيرة على صوت موسيقى تتساب من "فونوجراف" موجود فى الجزء الخاص بسادة المنزل، وكان السيد "موخين" قد أحضر من لندن بعض التسجيلات الجميلة لموسيقى هاواى الراقصة التى لا تخلو من أنين عذب.

"أنت مغامر، دون جوان ، كازانوف" - هكذا كان "فينشتوك" سيقول لنفسه، لكنه بلا تردد دعا "سمروف" بالعمل المزدوج أو ذى الوجوه الثلاثة ، وتوقع من المنضدة الصغيرة، بداخلها شبح "أزف" العصبى، أن تقدم له كشوفات جديدة مهمة.

وقد كانت هذه الصورة لـ "سمروف" مثيرة بالنسبة لى ، لكنها الآن أقل إثارة، لأنها محكوم عليها بالتلاشى التدريجى نتيجة لغياب الدليل المدعم لوجودها. بالطبع دام

الغموض المحيط بشخصية "سمروف". ويستطيع الواحد أن يتخيل "فينتشوك" بعد سنوات عديدة قادمة وفي مدينة أخرى، يشير بشكل عابر إلى رجل غريب عمل ذات مرة كمندوب مبيعات لديه، والآن لا يعلم سوى الرب أين هو. وسوف يضيف في تأمل: "نعم، إنه شخصية غريبة جداً. فهو رجل علاقاته غير مكتملة، رجل يحمل بداخله سراً. وفي استطاعته إلحاق الأذى بفتاة... فمن أرسله، ومن كان يختبر، من الصعب أن أفصح. رغم أنني عرفت من مصدر موثوق... لكنني لا أريد التفوه بشيء".

* * *

أما الأكثر امتاعاً فهي فكرة "جرتشن" - أو هيلدا - عن "سمروف". فذات يوم من يناير اختفى زوج جديد من الجوارب الحريريّة من دولاب "فانيا"، وحينما تذكر الآخرون العديد من المفقودات التافهة: سبعون "بفنج" فكة كانت على المنضدة، وقطعة من قطع لعبة الداما، وصندوق تجميل من الكريستال "هرب من الاتحاد السوفيتي"، حسب ثورية "خروشوف"، ومنديل حريري، ثمين القيمة لسبب ما "فأين على الأرض أستطيع أن أضعه؟".

بعد ذلك - جاء "سمروف" ذات يوم، مرتدياً رابطة عنق ذات لون أزرق فاتح وفي جمال الطاووس، عندئذ طرقت عين "خروشوف" وقال أنه كان يمتلك رابطة عنق مثل هذه تماماً، وبدا "سمروف" محرجاً بشكل مبالغ فيه،

ولم يرتد مثل هذه الرابطة ثانية.

لكن بالطبع لم يطرأ ببال أحد أن هذه الأوزة المغفلة قد سرقت رابطة العنق (اعتادت أن تقول، بالمناسبة، رابطة العنق هي حلقة الرجل)، وأعطتها بحكم العادة، إلى صديقها فى هذا الوقت - حسبما أخبر "سمروف" بمرارة "فينشتوك". وتم اكتشاف أمرها عندما تصادف أن "إيفجنيا" دخلت حجرتها وهى غير موجودة بها، ووجدت فى "التسريحة" أشياء مألوفة بدت كما لو كانت بعثت بعد موت، ونتيجة لذلك رحلت "جرتشن" - أو "هيلدا" - لتواجه مصيراً مجهولاً، وقد حاول "سمروف" أن يبحث عنها لكنه سرعان ما توقف. وفي ظهيرة نفس اليوم قالت "إيفجنيا" أنها قد عرفت أشياء مثيرة من زوجة البواب، منها أن صديق "هيلدا" لم يكن رجل مطافئ، لم يكن رجل مطافئ أبداً، قالت ذلك ضاحكة، بل كان شاعراً أجنبياً، أليس ذلك مبهماً؟ هذا الشاعر الأجنبى مر بتجربة حب تراجيدية، وأملك أسرته فى حجم ألمانيا، لكنه كان ممنوعاً من العودة للوطن، حكاية مبهجة.. أليس كذلك؟.

لكن للأسف لم تسأل زوجة البواب عن اسم هذا الرجل، أنا متأكدة أنه روسى، ولن أفاهاً إذا تبين أنه أحد الذين جاءوا لرؤيتنا.. على سبيل المثال، هذا الفتى الذى جاء العام الماضى، تعرفون من أعنى، الفتى ذى البشرة السمراء والجاذبية القاتلة، ماذا كان اسمه؟ قالت "فانيا": أعرف من تقصدين. ذلك البارون أو شىء من هذا القبيل.

أكملت "إيفجنيا" : أوه - إنها حكاية مبهجة جداً.
لقد قالت زوجة البواب أنه رجل كله روح، رجل
روحانى... أه - من الممكن أن أموت من الضحك.
قال "رومان بوجدانوفيتش" بصوت رائع، سأدون
كل ذلك، ليحظى صديقى فى "تالين" بخطاب مسل للغاية".
قالت "فانيا": ألا تمل من ذلك أبداً؟ لقد حاولت
مراراً الاحتفاظ بمذكرات يومية، لكننى دائماً كنت أتخلى
عن هذه الفكرة. وعندما كنت أعيد قراءتها، كنت أخجل
مما دونته.

قال "رومان بوجدانوفيتش": "أوه - لا . إذا داومت
على القيام بها بإتقان وانتظام ستحظين بشعور طيب،
شعور بالحفاظ على الذات، ويمكن القول بأنك تحافظين
على حياتك بأكملها. وبعد سنوات عندما تعيد قراءتها
ربما تجدونها ليست خلواً من الجاذبية والتشويق على سبيل
المثال، لقد دونت وصفاً لك سيحسدنى عليه أى كاتب
محترف. جرة قلم هنا، وجرة قلم هناك، وهاهى صورة
كاملة.

قالت "فانيا": "أوه من فضلك دعنى أراها.
قال "رومان بوجدانوفيتش" - مبتسماً: لا أستطيع .
قالت "فانيا": حسناً - إعرضها على "إيفجنيا".
قال "رومان بوجدانوفيتش" : لا أستطيع . أود أن
أفعل ذلك ، لكننى لا أستطيع . فصديقى - من تالين -
يخزن ما أدونه كل أسبوع بمجرد وصول هذه اليوميات

إليه ، وعن عمد لا أحتفظ بأية نسخ ، وهكذا لن يكون من إغراء للقيام بتغييرات لاحقة أو حذف أشياء .. إلى آخره . وذات يوم ، عندما يصبح "رومان بوجدانوفيتش" عجوزاً جداً سيجلس إلى مكتبه ويعيد قراءة حياته. هذا من أكتب لأجله، لأجل عجوز بلحية "سانتا كلوز" الذى سأكونه فى المستقبل، وإذا ما وجدت أن حياتى كانت ثرية ومفيدة، سوف أترك مذكراتى كدرس للأجيال القادمة.

سألت "فانيا: وإذا كانت كلها هراء؟

أجاب "رومان بوجدانوفيتش" : ما يعتبر هراء لشخص ما، قد يكون له معنى لدى شخص آخر. لفترة طويلة شغلنى وأربكنى التفكير فى هذه اليوميات المكتوبة على هيئة رسائل.

وتدريجياً أصبحت الرغبة فى قراءة - على الأقل جزء منها - تعذيباً عنيفاً، واستحوذاً دائماً.

لم يكن لدى أى شك فى أن هذه المذكرات الموجزة قد احتوت وصفاً لـ "سمروف".

أعرف فى كثير من الأحيان ، أن التناول التافه للمحادثات، والتسكع فى طرقات المدينة، وأشجار التيوليب أو الببغاوات الخاصة بالجيران، وما تناوله المرء على الغداء، قد تغطى على - مثلاً - إعدام الملك.

أعرف أن مثل هذه الملاحظات التافهة غالباً ما تعيش مئات السنين، والآن هذا الشخص سيقراها ببهجة لأجل عبق القديم ، اسم طبق، الرحابة المبهجة حيث

تتزامن - الآن - البنايات الشاهقة.

وبالإضافة إلى هذا يحدث غالباً أن كاتب اليوميات، الذى أثناء حياته كان مجهولاً أو تعرض للسخرية من أشخاص تافهين، يظهر بعد مائتى سنة - بوصفه كاتباً مميزاً، عرف كيف يخلد بواسطة ريشة قلمه ذى الطراز القديم، والبراح البهيج، ورائحة عربة تجرها الجياد، والغرائب التى يعرفها.

وبمجرد التفكير فى أن صورة "سمروف" قد تكون فى أمان تام وتبقى طويلاً، أشعر بقشعريرة غامضة ، وأصبح مجنوناً بالرغبة ، وأشعر أنني يجب - مهما كلفنى ذلك - أن أقحم نفسى، شبحياً، بين "رومان بوجدانوفيتش" وصديقه فى "تالين". وبالطبع حذرتني التجربة من أن الصورة الخاصة لـ "سمروف" ، والتي ربما مقدر لها أن تحيا للأبد (وليبهج ذلك الأصوليين) ، قد تكون بمثابة صدمة بالنسبة لي .

لكن الإصرار على امتلاك هذا السر، لرؤية "سمروف" خلال عيون القرون القادمة، كان فائتاً لدرجة أن أى تفكير فى خيبة الأمل لا يستطيع إخافتى.

فقط شيء واحد أخافنى وهو التدقيق طويلاً فى الأمور الثقافية، لأنه من الصعب تخيل أنه فى أول خطاب أقرأه، سيبدأ "رومان بوجدانوفيتش" هكذا - مباشرة - (مثل الصوت، فى أعلى درجة، الذى ينفجر فى أنذيك عندما تفتح الراديو للحظة) بتقرير بليغ عن "سمروف".

واستدعيت شارعاً مظلماً فى ليلة عاصفة من شهر مارس كانت السحابات تتدحرج عبر السماء، متخذة هيئة أشكال تشبه قطع الفن الزخرفى وتبدو مثل مهرجين منتفخين يتمايلون فى حفلة تنكرية، وبينما تندفع للأمام بفعل الرياح متعلقة بقبعتى السوداء المستديرة، شعرت بها كما لو كانت ستنفجر مثل قنبلة إذا تركت حافتها.

وقفت بالقرب من المنزل حيث عاش "رومان بوجدانوفيتش" وكان الشاهد الوحيد على مراقبتى هذه مصدر ضوء فى الشارع يهتز الضوء المنبعث منه بسبب الريح، وقطعة ورق من النوع المستخدم فى لف الأشياء تندفع سريعاً بامتداد الرصيف، والآن بمرح غريب نحاول أن نلف نفسها حول ساقى، دون أدنى تأثير لمحاولتى العنيفة أن أدفعها بعيداً. ولم يسبق لى - قط - أن لاقيت مثل هذه الريح أو رأيت مثل هذه سماء فى حالة اضطراب وتخبط. وجعلنى هذا أشعر بالغضب، فلقد جئت لأتجسس على أحد الطقوس - كان "رومان بوجدانوفيتش" ، فى منتصف الليل بين الجمعة والسبت، يضع خطاباً فى صندوق الخطابات - وكان من الضرورى أن أرى بعينى قبل أن أبدأ تطوير الخطة غير الواضحة التى تخيلتها . وأملت أننى بمجرد أن أرى صراع "رومان بوجدانوفيتش" مع الريح للسيطرة على صندوق الخطابات، ستصبح خطتى المتخيلة ممكنة التنفيذ وأكثر تحديداً (كنت أفكر فى تجهيز كيس لأدخله بطريقة ما داخل صندوق الخطابات،

تحفظه مفتوحاً وفي وضع يجعل أى خطاب "يُلقي داخل الصندوق يسقط فيه).

لكن هذه الريح - الآن تطن أسفل قبعتي، وتتفخ رجليّ بنطالي، وتضغط على ساقيّ حتى يبدو كما لو كانا عظماً - كانت حجر عثرة في طريقي يمنعني عن التركيز في هذا الأمر.

.. قريباً سينتصف الليل ليُمر هذا الوقت العصيب، فانا أعرف أن "رومان بوجدانوفيتش" رجل دقيق.

نظرت إلى المنزل، وحاولت أن أخمّن خلف أى من النوافذ الأربعة المضاءة: هناك، يجلس في هذه اللحظة رجل قد أحنى على ورقة أمامه مبتدعاً صورة - قد تكون خالدة - عن "سمروف". عندئذ سأحيد نظرتي المحملقة إلى المكعب المظلم المثبت إلى سياح من الحديد، سأنظر إلى صندوق البريد المظلم حيث سيغوص خطاب مكتوب بلا ترو كما لو كان يغوص في الأبدية.

وقفت بعيداً عن ضوء الشارع، حيث منحتني الظلال نوعاً من الحماية الخجلة. فجأة - ظهر ضوء أصفر على زجاج الباب الأمامي، وفي غمرة إثارتى فقدت سيطرتي على حواف قبعتي . وفي اللحظة التالية كنت أدور فوق بقعة واحدة، بيدي مرفوعتين كما لو أن القبة التي خطفت مني حالاً ولازالت تدور حول رأسي. وسقطت القبة السوداء المستديرة ، محدثة صوتاً مكتوماً، وتدحرجت بعيداً على الممشى الجانبي. انطلقت وراءها ،

محاولاً الإسراع لإيقافها، وكنت أن اصطدم بـ "رومان بوجدانوفيتش" الذى النقط قبعتى بيد واحدة، بينما بالأخرى يمسك مظروفاً مختوماً يبدو أبيض اللون ويشع المظهر. واعتقدت أن ظهوري إلى جواره فى هذه الساعة المتأخرة سوف يربكه.

للحظة احتوتنا عاصفة فى عنفوانها، أطلقت صرخة محاولاً أن يعلو صوتى على ضجيج الليل المهبوس، وعندئذ النقطت بإصبعين الخطاب من يد "رومان بوجدانوفيتش"، صرخت " صندوق البريد فى طريقي " .. كان متاحاً لى أن ألمح تعبيراً يوحى بالانزعاج والشك على وجهه، لكننى سرعان ما اندفعت قاطعاً العشرين ياردة إلى صندوق البريد وتظاهرت بأننى أدفع شيئاً ما بداخله ، وبدلاً عن ذلك دسست الخطاب داخل الجيب المقابل لصدري. وهنا أدرك وجودي . ولاحظت أنه يرتدى (شبشب) المنزل. وقال لى باستياء "أية عادات تلك التى لديك، ربما لا أريد إرساله. ها هى قبعتك، خذها... أرأيت أبداً مثل هذه الريح؟

قلت لاهثاً: "أنا فى عجلة من أمرى" فالليلة بأحداثها المتلاحقة "قطعت نفسى" - إلى اللقاء، إلى اللقاء!!!

وامتط ظلى، أثناء اندفاعه فى أضواء الشارع، وتجاوزنى، لكنه فقد بعد ذلك فى الظلمة.

وبمجرد أن غادرت الشارع، توقفت الريح، وكان كل شيء ساكناً بشكل مروع، ووسط هذا السكون كانت هناك عربة تزمجر بالقرب من منحنى. وثبت عليها حتى دون أن أتبين أرقامها، ولفت انتباهي ما تميز به داخلها من بريق احتفالي، بعد ذلك كان من الضروري أن أجد مصدراً للضوء في الحال. وجدتُ مقعداً في ركن هادئ، واندفعت مهتاجاً أمزق المظروف. عندئذ جاء شخص ما إليّ، وكبدية وضعت قبعتي على الخطاب. لكنه لم يكن سوى محصل التذاكر. تظاهرت بالتثاوب وبهدوء دفعت له ثمن التذكرة ، لكنني أبقيت الخطاب مخبأ طوال الوقت لأكون بمأمن عن أية شهادة ممكنة في قاعة المحكمة، فليس هناك شيء أكثر قدرة على الإدانة من هؤلاء الشهود غير الواضحين مثل المحصلين، سائق التاكسي، والبوابين. وبمجرد أن مضى فتحت الخطاب. بلغ طوله عشر صفحات، ومكتوب دفعة واحدة ودون تصويب واحد. لم تكن البداية شيقة تماماً، تجاوزت عدة صفحات وفجأة، مثل ملاقة وجه مألوف في زحام شديد، بدا لي اسم "سمروف" .. ياله من حظ مدهش!!

أقترح عزيزي "فيودور روبرتوفيتش" أن أعود مؤقتاً إلى ذكر هذا الوضع. أخشى أن ذلك قد يزعجك، لكن حسب كلمات الشاعر الألماني المدهش ، أشير إلى العظيم جوته ، وتلى ذلك جملة ألمانية - ولهذا أسمح لي أن أتأمل حالة "سمروف" مجدداً وأن أعرض عليك دراسة

سيكولوجية صغيرة.

توقفت وتابعت إعلاناً عن "شوكولاته الحليب" بنكهة زهور الليلك. كانت هذه هي فرصتي الأخيرة لأتخلى عن الرغبة في النفاذ إلى سر خلود "سمروف" ما الذى يهمنى إذا كان هذا الخطاب سيسافر - حقيقة - عبر جبل بعيد ليعبر إلى القرن القادم، الذى يبدو تكوينه - من رقم اثنين وثلاثة أصفار - خيالياً جداً لدرجة العبث؟

ما الذى يهمنى فى نوع البورتريه الذى سيعرضه هذا المؤلف الميت منذ فترة طويلة، مستخدماً نفس التعبير الردىء "يعرض" الذى سبق واستخدمه، على أجيال مجهولة قادمة؟

وعلى أية حال ليس هذا بالوقت المناسب للتخلى عن مغامرتي، لإيقاف المطاردة والمراقبة والمحاولة المجنونة لمحاصرة "سمروف"، أليس كذلك؟

لكن للأسف، كان ذلك بمثابة تداع لغوي ذهني، فأنا على يقين تام بأنه لا توجد قوة على سطح الأرض تستطيع منعي عن قراءة هذا الخطاب. (لدي انطباع، أيها الصديق العزيز، بأننى قد كتبت لك توا عن حقيقة أن "سمروف" ينتمى إلى نوع من الناس مثير للفضول، هؤلاء أدعوه بـ "المنحرفين جنسياً". ومظهر "سمروف" بأكمله، وسهولة انقياده، انحطاطه، وإيماءاته المتكلفة، وولعه بـ "ماء الكولونيا"، وعلى الأخص هذه النظرات المختلطة

التي يوجهها دائماً إلى خادمك متواضعة المظهر، كل ما سبق يؤكد ما خمنته.

ومن الواضح أن مثل هؤلاء الأشخاص غير المحظوظين جنسياً، عندما يتوقون حسياً إلى حالة الكائن الوسيم الناضج مثل رجل، يختارون امرأة يعرفونها جيداً أو قليلاً أو لا يعرفونها على الإطلاق.

وهكذا اختار "سمروف" - رغم فسادته - "فارفارا" نموذجاً خاصاً به. وهذه المعشوقة الجميلة رغم غيابها، مخطوبة لـ "م. م. موخين" واحد من أصغر الكولونيالات في الجيش الأبيض، وهكذا تأكد "سمروف" تمام التأكد من أنه لن يجبر على أداء أى دور، هو غير قادر أو راغب فيه، مع أية سيدة حتى ولو كانت "كليوباترا" ذاتها.

بالإضافة إلى ذلك فإن "المنحرف جنسياً" - وأقر بأننى أجد المصطلح مناسباً بشكل مذهل - كثيراً ما يغذى بداخله ميلاً لكسر القانون، وتسهل مثل هذه المخالفة أكثر بالنسبة له بواسطة الحقيقة التي تقول بأن مخالفة قانون الطبيعة موجودة بالفعل. وهنا كذلك لا يعد صديقنا "سمروف" استثناء.

تصور، فى يوم أسر لى (فيليب أنوكينيتيفتش خروشوف) بأن "سمروف" كان لصاً، لص بكل ما تعنيه الكلمة من قبح، وصرح لى محاورى بأنه قد أعطاه "علبة نشوق" عليها علامات غامضة، وترجع العلبة إلى عصر عظيم مضى، وطلب منه أن يعرضها على خبير.

أخذ "سمروف" هذه التحفة الجميلة ، وأخبر "خروشوف" وعلى وجهه كل علامات الرعب - أنه فقدوها. أنصت إلى إدعاء "خروشوف" ، وبينت له أنه فى بعض الأحيان يكون الدافع للسرقة مجرد ظاهرة مرضية لها اسم علمى "كليبتمانيا - هوس السرقة".

و"خروشوف" ، مثله مثل العديد من الأشخاص اللطفاء رغم محدودية تفكيرهم، بدأ بسذاجة ينفى أننا فى الحالة الراهنة نتعامل مع مريض بهوس السرقة وليس مجرماً.

ولم أدخل معه فى نقاشات كانت بلاشك قادرة على إقناعه. فبالنسبة لى كل شىء واضح كضوء النهار، فبدلاً عن وسم "سمروف" بلقب "الص" المهين، أشعر بأسى صادق تجاهه، رغم المفارقة التى قد تبدو فى هذا الشعور. ولقد تحول الطقس للأسوأ، وربما يكون للأفضل، لولا هذه الثلوج نصف الذائبة والريح التى تبشر بمقدم الربيع، والتى، حتى فى قلب رجل عجوز، تثير رغبات غامضة ، قول ماثور يخطر على العقل، وهو بلاشك لن)

انزلقت إلى نهاية الخطاب - لم يكن هناك المزيد يمثل أهمية بالنسبة لى. نظفت حلقى، وبأصابع غير مرتعشة طويت الأوراق بنظام.

سمعت صوتاً فظاً يوجه كلاماً إلىّ : "المحطة الأخيرة يا سيدى".

ثانية - المساء - المطر ، وضواحي المدينة...

* * *

كان "سمروف" يجلس على إحدى درجات سلم مرتدياً معطفاً ملفتاً من الفراء له ياقة نسائية. فجأة هبط "خروشوف"، وكان يرتدى معطفاً من الفراء، وجلس إلى جواره . كان صعباً على "سمروف" أن يبدأ بالكلام، لكنه أدرك أن الوقت ضيق، ويجب عليه أن يخوض التجربة . أخرج يده ذات الشكل الأسطوانى من الكم الفرو الواسع، وكانت الخواتم تشرق فى أصابعه، جميعها من الياقوت، مر بيده على شعره، وقال: "هناك شيء أريد أن أذكرك به يا "فيليب أنوكينتيتش" - من فضلك أنصت لى جيداً". أوما "خروشوف"، وتمخط بصوت مرتفع (كان مصاباً بالبرد من جلوسه الدائم على درجات السلم) أوما ثانية، وارتعش أنفه المتورم.

استمر "سمروف" فى الكلام: سأحدث عن حادثة صغيرة وقعت حديثاً. من فضلك أنصت جيداً.
رد "خروشوف": "تحت أمرك".

قال "سمروف": من الصعب على أن أبدأ. فربما أخون نفسى بتلفظ كلمة عن غير قصد. أنصت جيداً، أنصت إلى من فضلك يجب أن تفهم أننى أعود إلى هذه الحادثة دون غرض خاص كامن فى خلفية عقلى فأنا لم يدخل دماغى أنك ظننت أننى لص.
أنت نفسك يجب أن توافقنى على أننى لا أستطيع

أن أطلع على تفكيرك هذا، فرغم كل شيء أنا لا أقرأ
خطابات الآخرين، وأريدك أن تفهم أن الموضوع حدث
بمحض الصدفة... هل تتصت؟

قال "خروشوف": إستمّر ، وهو يضم أطراف
معطفه الفرو. أكمل "سمروف": حسناً، لنستعيد ذلك "فيليب
أنوكينيتش" لننذكر صندوق السعوط الفضى ذا النقوش.
طلبت منى أن أعرضه على "فينتشوك"، أنصت باهتمام،
وعندما غادرتك كنت أحمله فى يدى.

لا - لا - من فضلك لا تبدأ بتلاوة حروف الهجاء.
بإستطاعتى الاتصال بك جيداً دون حاجة لحروف
الهجاء وأقسم، أقسم بـ "فانيا"، أقسم بكل امرأة أحببتها،
أقسم أن كل كلمة قالها الشخص الذى لا أستطيع نطق
اسمه - وإلا ستظن أننى طالما أقرأ رسائل الناس، فأنا
قادر على سرقتهم كذلك - أقسم أن كل كلمة قالها كاذبة،
ففى الواقع لقد فقدت هذا الصندوق. عدت إلى المنزل، ولم
يكن بحوزتى عندئذ، ولم يكن ذلك نتيجة لخطئى. فقط
كنت مغيب العقل، لأننى أحبها كثيراً . لكن "خروشوف" لم
يصدق "سمروف"، وهز رأسه. وبلا طائل أقسم "سمروف"
وهو ويهز يديه البيضابين اللامعتين. ولا أمل - فالكلمات
اللزامة لإقناع "خروشوف" لا وجود لها (هنا استتفز
حلمى منبعه الهزيل من المنطق: فمن الآن السلام التى
دارت عليها هذه المناقشة ستبدو موجودة بمفردها فى
ريف مفتوح، وأسفلها تمتد الحقائق فى مستطيلات

مصفوفة إلى جوار بعضها، صورة ضبابية لأشجار
أزهارها غير واضحة، وتنتشر هذه الحقائق المستطيلة
بامتداد الأرض المنبسطة حتى ليهيأ للمرء أنه يستطيع
تميز مساقط المياه الصغيرة والمروج الجبلية الخضراء.)
قال "خروشوف" بصوت حاد متكلف: "نعم، نعم، نعم
كان هناك شيء ما داخل الصندوق، ولهذا لا يمكن
استبداله.

بداخله كانت توجد "فانيا"، نعم - نعم يحدث هذا
أحياناً للنبات... ظاهرة شديدة الندرة ، لكنها تحدث.
استيقظت في الصباح الباكر. زجاج النوافذ يرتج
لمرور شاحنة ، ومنذ فترة طويلة لم يعد هذا الزجاج
يغطي بطبقة رقيقة بنفسجية من الثلج ، لقرب حلول
الربيع. توقفت عن التفكير في كل ما حدث لي مؤخراً،
وكم عدد الأشخاص الذين قابلتهم، وكم كانت عملية البحث
من منزل إلى منزل - عملية استعبادية وبلا أمل يرجى
منها، ومثلها سعيي للوصول إلى "سمروف" الواقعي.
لا فائدة من التخفي ، فكل هؤلاء الأشخاص الذين
قابلتهم لم يكونوا كائنات حية لكنهم كانوا مرايا محتملة لـ
"سمروف" . وضمنهم ثمة واحدة هي الأهم بالنسبة لي ،
أكثر المرايا لمعانا ورغم ذلك لا تستطيع أن تقدم لي
انعكاساً لوجود "سمروف".

أمامي يتحرك المضيفون والضيوف المقيمون في
(٥ شارع بيكوك)، يتحركون من الضوء إلى الظل، بلا

مجهود، وببراعة، كما لو كانوا مخلوقين فقط لتسليتي.
مرة أخرى يمد "موخين" يده، وهو بارز قليلاً عن
الأريكة، عبر المنضدة وباتجاه مظافة السجائر، لكنني لم
أر وجهه أو تلك اليد وهي تحمل السيجارة، فقط رأيت يده
الأخرى والتي (بلا إرادة ..!) مست للحظة ركبة "فانيا".
ومرة أخرى "رومان بوجدانوفيتش" بلحيته
وبالتفاحتين على وجنتيه، يحنى وجهه المحقن لينفخ في
الشاي، وثانية تجلس "ماريانا" وهي تشبك ساقيها، رفيعتان
عليهما جوربان لهما لون مشمشي.
وكمزحة، كانت الليلة ليلة عيد الميلاد، وأظن أن
"خروشوف" كان يضم طرفي معطف زوجته المصنوع
من الفراء، مقلداً حركات "المانيكان" أمام المرأة، ويتجول
في الحجرة مثيراً ضحك الجميع، وتدرجياً تزايدت شدة
الضحك لأن "خروشوف" دائماً ما يتزيد في ممارحاته .
ببيديها الجميلتين الصغيرتين ذات الأظافر المصقولة والتي
تبدو رطبة، التقطت "إيفجنيا" مضرب تنس الطاولة والكرة
البلاستيكية الصغيرة ، وبدأت تضرب الكرة جيئة وذهاباً
عبر الشبكة كمن يؤدي واجباً. وثانية، في ظلمة جزئية
يجلس "فينشتوك" - شاردا - إلى منضدة عمودية مزودة
بقلم، فبدا كما لو كان جالساً إلى عجلة قيادة، وثانية تمر
الخادمة "هيلدا" أو "جرتشن" حلمياً من باب إلى آخر ،
وفجأة تبدأ الهمس وتخلع ملابسها. وحينما أُرغب أستطيع
أن أسرع أو أبطئ من حركات هؤلاء الناس لحد سخيـف ،

أو أوزعهم على مجموعات مختلفة، أو أرتبهم فى تصنيفات متنوعة، وأسقط الآن الإضاءة عليهم من أسفل، ثم من الجانب... بالنسبة لى أصبح وجودهم مجرد وميض على شاشة.

* * *

لكن انتظر، ثمة محاولة أخيرة توفرها الحياة لتثبت لى أنها كانت حقيقة.. مستبدة وحساسة ، تشير مشاعر المتعة والعذاب ، تمتلك احتمالات عمياء للسعادة مع الدموع ، مع الرياح الدافئة.

فى ذلك اليوم صعدت إلى شقتهم مساءً، ووجدت الباب غير مغلق ،الحجرات خالية ، والنوافذ مفتوحة. وفى مكان ما كانت مكنسة هوائية تصدر طنيناً شديداً.

فجأة ، من خلال الباب الزجاجى بين حجرة الاستقبال والشرفة، رأيت رأس "فانيا" المنحنى.. كانت تجلس فى الشرفة ويدها كتاب، ومما أدهشنى أنها المرة الأولى التى أجدها فى البيت بمفردها.

ومنذ أن حاولت قهر حبى لها قائلاً لنفسى أن "فانيا"، مثل كل الآخرين، موجودة فقط فى خيالى، وهى مجرد مرآة ، بدأت أعتاد إدعاء نبيرة مرحلة مميزة عندما اتحدث إليها ، والآن أحبيها، قلت بلا أدنى ارتباك أنها "مثل أميرة تستقبل الربيع من برجها العالى".

كانت الشرفة صغيرة تماماً، وبها إصيصات زهور فارغة، وفى أحد الأركان إناء فخارى مكسور،

قارنت عقلياً بينه وبين قلبي، حيث أنه يحدث أن أسلوب
المرء في الحديث إلى شخص ما يؤثر في الطريقة التي
يفكر بها في وجود هذا الشخص . كان النهار دافئاً، رغم
أنه لم يكن مشمساً كفاية ، مع قليل من الشوائب
والرطوبة التي خفت من ضوء الشمس، ونسيم معتدل
غير مستقر يحمل الانتعاش من زيارة لبعض الحقائق
العامة حيث العشب الصغير يقف قوياً وأخضر أمام سواد
الطفل الرملى.

أخذت شهيقاً من هذا الهواء، وأدركت تلقائياً أن
زفاف "فانيا" كان منذ أسبوع مضى.

أعاد على هذا التفكير كل مشاعر الشفقة والألم،
ونسيت ثانية أمر "سمروف" ونسيت أنني يجب أن أتحدث
بطريقة لامبالية، استدرت وبدأت أنظر إلى الشارع في
الأسفل، كم كنا مرتفعين ، كم كنا لوحدهنا تماماً .

قالت "فانيا": "سيحضر بعد برهة قصيرة" ، "لقد
تركوك تنتظر لساعات في هذه المكاتب".

"سهرك الرومانسى ... بدأت مستحناً نفسي لأبقى
على هذا الارتفاع الذى يصون الحياة، ومحاولاً أن أقنع
نفسى أن النسيم الربيعى كان شائعاً لحد ما، وأننى أمتعت
نفسى كثيراً.

لم أكن قد حظيت بنظرة معقولة إلى "فانيا" فدائماً
كنت أحتاج إلى قليل من الوقت لأتعود على وجودها قبل
النظر إليها ، والآن رأيت أنها كانت ترتدى تنورة حريرية

سوداء و"بلوفر" أبيض ذا طوق منخفض على شكل حرف (V) وأن تسريحة شعرها كانت ناعمة مناسبة. كانت تنظر من خلال نظارتها إلى صفحات كتاب مفتوح ، رواية دموية كتبها سيدة روسية في "بلجراد" أو "هاربين" . كم كنا أعلى من الشارع ، قرييين من السماء المنبسطة والمجعدة. في الداخل توقفت المكينة الهوائية عن إصدار ضجيجها . قالت: "توفى عمى باشا" ورفعت رأسها- "نعم وصلتنا برقية هذا الصباح".

ما الذى يهمنى إذا كان وجود هذا العجوز، المرح ذو النصف عقل، قد وصل إلى نهاية ما؟
لكن مجرد التفكير أن بموته قد ماتت الصورة السعيدة قصيرة الأجل لـ "سمروف"، صورة "سمروف" العريس، شعرت أننى لا أستطيع بعد الآن أن أكبح مشاعر الإثارة التى اشتعلت بداخلى منذ فترة طويلة. لا أعرف كيف بدأت - لابد كانت هناك بعض المحرضات الابتدائية لكننى لا أذكر سوى أننى وجدت نفسى جالسا على الذراع الواسع لكرسى "البامبو" الذى تجلس عليه "فانيا" ، وقد تعلقت فى الحال بمعصم يدها - طويلاً حلمت بذلك التلامس الممنوع - إحمر وجهها بشدة، وفجأة بدأت عينها تلمع لترقرق الدموع فيها - رأيت بوضوح ، جفنها السفلى الداكن وقد امتلأ بسائل متلألئ ، وفى نفس الوقت احتفظت بابتسامتها - كما لو كانت بكرم بالغ قد أرادت أن تسبغ على كل التعبيرات المتنوعة لجمالها "كان رجلاً عجوزاً

لطيفاً ومسلماً" قالت ذلك لتفسر الابتسامة المتألقة على شفيتها، لكننى قاطعتها، تمتت : "لا أستطيع الاستمرار هكذا، لا أستطيع الاحتمال أكثر من ذلك". والآن تحاول انتزاع معصمها من قبضتى، والذى سرعان ما أصبح متوتراً مشدوداً ، والآن تقلب صفحة طيعة فى الكتاب الموضوع على قدميها، وقالت : "يجب أن أخبرك ... ولن يشكل ذلك أى فرق - سوف أرحل ولن أراك ثانية بعد الآن . يجب أن أخبرك فرغم كل شيء أنت لا تعرفنى.. لكننى فى الحقيقة ارتدى قناعاً، دائماً اخفى خلف قناع..".

قالت "فانيا" : "تعال - تعال، فى الحقيقة أنا أعرفك جيداً، فأنا أرى كل شيء، وأعرف كل شيء. أنت شخص طيب وذكى. انتظر لحظة، سأخذ مندبلى . أنت تجلس عليه. لا لقد سقط شكراً لك. من فضلك دع يدي لا يجب أن تلمسنى بهذه الطريقة. من فضلك لا تفعل، ومن جديد كانت تبتسم ، رافعة حاجبيها بلطف لا يخلو من كوميديا، كما لو كانت تدعونى لأبتسم أنا الآخر، لكننى كنت قد فقدت كامل سيطرتى على نفسى، فلقد شعرت أن بعضاً من آمالى المستحيلة كانت ترفرف بالقرب منى، وبدأت الحديث والإيماء بجموح بالغ لدرجة أن ذراع المقعد تحتى بدأ يصير، وكانت هناك لحظات كان مفرق شعر "فانيا" أسفل شفتي تماماً، مما جعلها تبعد رأسها بحرص.

قلت بسرعة "أكثر من الحياة نفسها" ... "أكثر من الحياة نفسها، ومنذ فترة طويلة، من اللحظة الأولى. وأنت

أول شخص على الإطلاق يقول لى أننى طيب..".
قالت "فانيا" بنبرة ملتزمة: "من فضلك لا تفعل ذلك. أنت فقط تؤلم نفسك وتؤلمنى، ما رأيك - لم لا تدعنى أحكى لك كيف صرح لى "رومان بوجدانوفيتش" بحبه لى.. كان مرحاً..".

صرخت : كيف تجرؤين؟ من يهتم بهذا المهرج؟
انا أعرف، أعرف أنك ستكونين سعيدة معى. وإذا كان هناك شيء يتعلق بى ولا يروق لك، سأغيره كما يحلو لك، سأغيره.

قالت "فانيا" يعجبنى كل شيء فيك، حتى خيالك الشعري . حتى ميلك للمبالغة فى بعض الأحيان . لكن فوق كل ذلك أحب طبيبتك، دائماً أنت غريب وجذاب. لكن من فضلك توقف عن الإمساك بيدى هكذا، وإلا ببساطة سأنهض وأرحل.

سألت: "إذن ما زال هناك أمل رغم كل شيء؟".
قالت "فانيا": "لا أمل على الإطلاق، وأنت تعرف ذلك تماماً. وبالإضافة إلى ذلك، سوف يحضر "رومان" فى أية دقيقة الآن".

صرخت: لا يمكن أن تحبيه أنت تخدعين نفسك لا يستحقك. أستطيع أن أحكى لك بعض الأشياء المزعجة عنه.

قالت "فانيا" "هذا يكفى" وتظاهرت كما لو كانت

ستنهض.

عندئذ، رغبت أن أشل حركتها، وبلا إرادة أو شعور بالراحة احتضنتها، وتحت تأثير الملمس الدافئ الصوفى الشفاف للبلوفر الذى ترتديه، بدأت بهجة غير واضحة وموجعة تفور بداخلى، كنت جاهزاً لأى شىء حتى لأكثر الأفعال وحشية وإثارة للتقرز، لكن من اللازم أن أقبلها ولو مرة .

تمتت : لماذا تقاومين؟ ماذا سيكلفك؟ بالنسبة لك هو مجرد فعل بسيط يدل على المحبة، وبالنسبة لى هو كل شىء.

اعتقدت أننى سأحصل على هزة الجماع ونشوتها الحلمية لو استطعت احتضانها لثوان معدودة أخرى، لكنها نجحت فى تحرير نفسها ووقفت. مشيت إلى سياج الشرفة وتتحننت وضيق عينيها وهى تنظر ناحيتى، وفى مكان ما من السماء انطلقت ذبذبة طويلة تشبه صوت القيثارة . وهذه هى الملاحظة الأخيرة. ليس لدى ما أخسره. فأفشيت دون تفكير كل شىء. وصرخت بأن "موخين" لم ولن يـع أن يحبها ، وفى تدفق مبتذل صورت حتمية . عادتنا إذا تزوجتتى، وفى النهاية شعرت أننى على وشك الانفجار فى البكاء، وألقيت كتابها الذى بطريقة ما كان بين يدي، واستدرت مبتعداً، لأترك "فانيا" للأبد فى شرفتها مع الريح ومع السماء الربيعية المعكرة، ومع الصوت الجهورى الغامض الصادر عن طائرة غير مرئية.

فى حجرة الاستقبال، غير بعيد عن الباب، جلس
"موخين" يدخن. تبعنى بعينيه وقال فى هدوء "لم أظن أبدا
أنك وغد لهذا الحد."

* * *

هبطت إلى حجرتى ، أخذت قبعتى وأسهرت
خارجاً إلى الشارع. وبمجرد دخولى أول محل زهور
رأيتة ، بدأت أدق بكعبى وأصفر، ولم يكن هناك غيرى.
فلقد استتارت روائح الزهور الزكية، فى كل مكان حولى،
حواسى المتلهفة. كان الشارع ممتداً فى المرأة الجانبية
والتي تحازى نافذة العرض، لكن ذلك الامتداد لم يكن
سوى امتداد متوهم: فالسيارة التي تمر من اليسار إلى
اليمن تتلاشى فجأة رغم هدوء الشارع المارة به.. ثم
سيارة أخرى تتقدم من الاتجاه المضاد لتتلاشى هي
الأخرى، وإحدهما لم تكن سوى انعكاس.

أخيراً ظهرت البائعة. كنت قد اخترت بوكيه كبيراً
من زهور "ليلك" الوادى"، تلك التي تتدلى من كتوسها
المرنة جواهر مائلة للزرقة، وكان الإصبع الرابع فى يد
البائعة ملفوفاً بضمادات، يبدو أنها قد وخزت نفسها. ذهبت
لتقف خلف الطاولة، ولفترة طويلة عملت بجدية فى صنع
لفافة منمقة من ورق ردى وشكلت الفروع المضمومة معا
بإحكام كتلة سمكية تشبه "السجق" ، وأبداً لم أتخيل أن
زهور "ليلك الوادى" قد تكون ثقيلة لهذا الحد.

وعندما دفعت الباب، لاحظت الانعكاس فى المرأة

الجانبية: هناك شاب يرتدى قبعة سوداء مستديرة، ويحمل بوكيه، كان يسرع باتجاهي، ثم اندمجت والانعكاس في شخص واحد. وخرجت إلى الشارع.

سرت بسرعة شديدة، بخطوات متكلفة، ومحاطاً بسحابة صغيرة من عطر الزهور. حاولت ألا أفكر في أي شيء، وأن أؤمن بقوة الشفاء المذهلة للمكان الخاص الذي اتجه إليه مسرعاً. كان الذهاب إليه هو السبيل الوحيد لتجنب كارثة: فالحياة - حارة وثقيلة وممتلئة بالعذاب - كانت في طريقها لتحل على ثانية لتتفى بوقاحة أنني كنت شبحاً.

فكما أن التحول المفاجئ للحياة الواقعية إلى حلم أمر مخيف، سببنا هذا الرعب عندما يبدأ - فجأة - ما ظنه المرء حلمًا - سائلاً وغير مسئول - يبدأ في التجمد ليصبح واقعاً.. يجب أن أوقف هذا، وأعرف كيف أقوم بذلك.

وبمجرد وصولي إلى هدفي، بدأت أضغط على الجرس دون أن أتوقف لألتقط أنفاسي، رننت كما لو كنت أظلم لا يحتمل، رننته طويلاً وبجشع، وهذا تعبير غوي.

جاء صوتها متذمراً: "حسناً، حسناً، حسناً، وفتحت الباب. اندفعت عبر العتبة، ودفعت "بوكيه" الورد إلى يديها. قالت: "أوه - كم هو جميل" وبنظرة ذاهلة من عينيها العجوزتين باهتت الزرقعة، ثبتت في مكاني.

صحت: "لا تشكريني" وبعنف رفعت يدي وأكملت "لكن
قدمي لي معروفًا، دعيني ألقى نظرة على حجرتي القديمة
أتوسل إليك.

قالت السيدة العجوز: "الحجرة؟"، أسفة لسوء الحظ
ليست خالية، لكن كم هو جميل منك، كم هو لطيف.
قلت وبى رعشة نفاد صبر: "لم تفهميني كلية.
فقط أريد أن ألقى نظرة. هذا كل شيء، ولا أكثر. من أجل
الورود التي جلبتها لك. من فضلك، أنا متأكد أن ساكن
الغرفة قد غادر إلى عمله..".

برشاقة مررت منها، وجريت الممر بطوله،
وجاءت خلفي، وهي تردد: "أوه - يا عزيزي - الحجرة
مؤجرة"، "داجالجن - لا ينوي المغادرة"، لا أستطيع أن
أدعك تحصل عليها".

جذبت الباب بعنف فافتح. كان الأثاث موزعاً
بشكل مختلف إلى حد ما، وكان هناك أبريق جديد على
الحوض، وخلفه على الجدار وجدت النقاب، وقد تمت
تغطيته "بالجص" - بعناية. نعم - في اللحظة التي وجدته
شعرت بالطمأنينة. وببدي تضغط على موقع القلب من
صدرى، حملت في العلامة السرية لرصاصتي: كانت
دايلي على أننى قد مت بالفعل، وسرعان ما استعاد العالم
تفاهته المطمئنة - ثانية شعرت أننى قوى، ولا شيء
يستطيع أن يؤذيني. وبشطحة واحدة من هلوستي كنت
قادراً على استدعاء أكثر الأطياف إشارة للرب من

وجودى السابق.

وبانحناء احترام تجاه السيدة العجوز غادرت
الحجرة حيث حدث ذات مرة، أن انقسم رجل إلى اثنين ،
عندما أطلق الرصاصة القاتلة. وأثناء عبوري فى الصالة
الأمامية لاحظت أن ورودى ملقاة على المنضدة،
فتظاهرت بحالة غياب الوعي، والنقطة، قائلاً لنفسى أن
هذه السيدة العجوز الغبية لا تستحق مثل هذه الهدية
الغالية. فى الحقيقة ، أستطيع إرسالها إلى "فانيا" ومعها،
تعلق حزين لا يخلو من الفكاهة.

مازالت الورود نضرة وندية، لكن أوراقها الرقيقة
بدأت تلتين هنا وهناك. وأثناء عصر أصابعى للسيقان
الخضر ذات الملمس البارد، استدعيت الارتجاج والسقوط
الذى صاحب ذهابى إلى العدم. مشيت مرتاحاً بامتداد حافة
الممشى الجانبى، نصف مغلق العينين، وتخيلت أننى كنت
أتحرك على شفا حفرة ، عندما حيانى فجأة صوت جاء
من ورائى.

"صباح الخير - سمروف" كان الصوت عالياً لكنه
مهتز النبيرة. استدريت لسماع اسمى، ولا إرادياً انزلقت
إحدى قدمى.. كان "كاشمارين" زوج "ماتيلدا" ، وكان
يجذب بسرعة مذهلة قفازين صفراوين ليقدم لى يده.
لم تكن معه عصاه المشهورة، وكان قد تغير نوعاً
ما، ربما يكون وزنه قد ازداد. كان على وجهه تعبير يشى
بالارتباك، وكانت أسنانه الكبيرة غير اللامعة، تبرق فى

تزامن مع قفازه ذى اللون الساطع، وكانت تبتسم في مواجهتي.

أخيراً ، اندفعت تجاهى يده بأصابعها ممدودة على آخرها، شعرت بوهن غريب ، وكنت متأثراً بعمق، حتى عيني بدأتاً تؤلمانى.

قال: "سمروف".. لا تستطيع أن تتخيل كم أنا سعيد أننى تمكنت من الالتقاء بك. كنت أبحث عنك بلهفة شديدة، لكن لم يكن هناك من يعرف عنوانك.

وهنا تبدى لى أننى أنصت بأدب شديد إلى هذا الشبح من حياتى السابقة، وقررت أن أذله ، فقلت : "ليس لدى ما أناقشه معك.. يجب أن تكون ممثلاً لألى لم أقاضيك أمام المحكمة".

قال مباشرة : "لتعرف "سمروف" أننى أحاول الاعتذار عن حالتى المزاجية المزرية. فبعد نقاشنا المحترم، لنقل هذا، لم أستطع أن أعيش فى سلام مع نفسى، شعرت بأن ما حدث كان فظيلاً دعنى أعترف لك بشيء ما ، كرجل محترم لآخر. تعرف، لقد أدركت بعد ذلك أنك لم تكن الأول أو الأخير، ولهذا طلقته، نعم طلقته.

قلت: "لا جدال، ليس هناك ما يمكن مناقشته بينى وبينك، وأخذت شمة من بوكيه الورد المملى والبارد.
قال "كاشمارين" متعجباً: أوه - لا تكن هكذا حقوداً...!"

.. تعال ، إضربنى ، وجه لى لكمة قوية ، وعندئذ سنسوى كل شىء. ألا تريد ذلك؟
.. ها أنت تبتسم - هذه علامة جيدة.
لا - لا تختبئى خلف الورد، أستطيع أن أراك تبتسم. حسناً - هكذا نستطيع الحديث مثل أصدقاء..
دعنى أسألك. كم من النقود تكسب؟
تجهمت طويلاً، ثم أجبت.
وطوال ذلك كان على أن أكبح رغبة فى قول شىء ما لطيف، شىء ما يوضح كم كنت متأثراً.
قال "كاشمارين": حسناً ، لقد جلبت لك وظيفة تحصل منها على ثلاثة أضعاف ما تكسبه الآن. تعال وقابلنى غداً صباحاً فى فندق "مونوبول". سأقدمك إلى شخص سيساعدك. الوظيفة فرصة، والرحلات إلى "الريفيرا" و"إيطاليا" لا يمكن إغفالها. الوظيفة لها علاقة بتجارة السيارات. ستمر علىّ - أليس كذلك؟
وكما يقولون . لقد أصاب عين الثور، فلقد سئمت "فينششوك" وكتبته منذ زمن طويل ، ثانية بدأت أشم الورد الباردة بين يدي، مخفياً فيها بهجتى وإمتنانى.
قلت: "سأفكر فى الأمر" وعطست.
افترقنا. سرت متمهلاً، وأنفى مدفون فى بوكيه الورد.

* * *

جاء "كاشمارين" بصورة أخرى لـ "سمروف"، فهل

يمثل ذلك أى اختلاف؟ لأننى غير موجود يصبح الوجود
ليس سوى آلاف المرايا التى تعكسنى . فمع كل علاقة
أقيمها يزداد عدد الأشباح التى تشبهنى . فى مكان ما
نتواجد، فى مكان ما نتكاثر. أنا فقط غير الموجود.

وعلى كل حال، سيدى "سمروف" لفترة طويلة.
فهذان الصبيان، إنسان عيونهما يخصنى، سيصبحان
عجوزين، وستعيش صورة أو أخرى لى بداخلهما مثل
طفيل.

بعد ذلك سيأتى اليوم الذى يموت فيه آخر شخص
يتذكرنى. وفى المقابل سيتضاءل الجنين، صورتى أيضاً،
ويموت داخل ذلك الشاهد الأخير للجريمة التى ارتكبتها
بواسطة الحقيقة المجردة للعيش.

وربما يتصادف أن تحكى عنى حكاية طريفة ،
ينقل فيها البطل اسمى منه إلى ابنه أو حفيده ،
وهكذا سيظهر اسمى وشبحى، هنا وهناك، بشكل مؤقت.
وبعد ذلك ستأتى النهاية.

رغم ذلك أنا سعيد. نعم سعيد. أقسم أننى سعيد .
فلقد أدركت أن السعادة الوحيدة فى هذا العالم هى أن
تلاحظ ، تتجسس، تشاهد، تتفحص ذاك والآخرين، أن
تكون لا شىء، مجرد عين كبيرة، زجاجية قليلاً، محتفنة
إلى حد ما ولا ترمش.

أقسم أن هذه هى السعادة.
ما الذى يهم فى أننى حقير قليلاً، مغفل قليلاً، وأنه

لا يوجد من يقدر كل الأشياء المميزة فى .. خيالى،
معرفتى الواسعة، موهبتى الأدبية.. أنا سعيد لأننى أستطيع
أن أحملق فى نفسى، ولأى شخص هذا أمر ممتع جداً، نعم
ممتع بحق!! فالعالم، مهما حاول ، لا يستطيع إيذاى..
فأنا منيع. وما الذى يهمنى إذا تزوجت شخصاً آخر؟
فبين ليلة وأخرى أحلم بملابسها وأشياءها على
حبل ملابس لا ينتهى من النعيم، وفى ربح لا تتوقف عن
الاستحواذ. ولن يعلم زوجها أبداً ماذا أفعل بخيوط الحرير
والصوف التى تخص هذه الفاتنة الراقصة. وهذه أسمى
إنجازات الحب.. أنا سعيد - نعم أنا سعيد!
ما المزيد الذى أستطيع أن أفعله لأثبت ذلك، كيف
أعلن أننى سعيد؟
أوه - لأصرخ معلناً ذلك حتى تصدقونى جميعاً
فى النهاية، أنتم أيها القساء، يا ناس من ضباب ودخان.

فلاديمير نابوكوف (١٨٩٩ - ١٩٧٧)

روائي أمريكي من أصل روسي .
تركت وأسرتة روسيا إلى أوروبا بعد قيام الثورة البلشفية.
تلقى تعليمه في جامعة كمبريدج البريطانية.
عاش خلال عشرينات وثلاثينات القرن الماضي في ألمانيا لكنه
فرّ منها في نهاية الثلاثينات عند اشتداد الحركة النازية.
استقر في أمريكا بداية من الأربعينات حيث عمل مدرساً للأدب
الروسي بجامعة شتافورد.
له عدد كبير من المؤلفات في مجالات الشعر والقصة
والرواية، بالإضافة إلى كتب في مجالات غير أدبية من أهمها
ما يتناول أنواع الفراشات وصيدها حيث كانت هذه هي هوايته
الأثيرة إلى جوار الكتابة.
من رواياته (ماشينكا)، (ضحكة في الظلام) ، (لوليتا)،
(الهبّة)، (الدفاع).
مارس قبيل وفاته الكتابة باللغة الإنجليزية.

- صدرت الرواية باللغة الإنجليزية عام ١٩٦٦ عن دار نشر (ويندفيلد ونيكولسون) ، ثم عام ١٩٦٨ عن دار نشر (بانثر).
- ترجمتها إلى الإنجليزية (ديمتري نابوكوف) بالتعاون مع المؤلف.

فلاديمير نابوكوف
العين
١٩٢٨

Bibliotheca Alexandrina



0366928

للتنشروالمعلومات



ميريت

